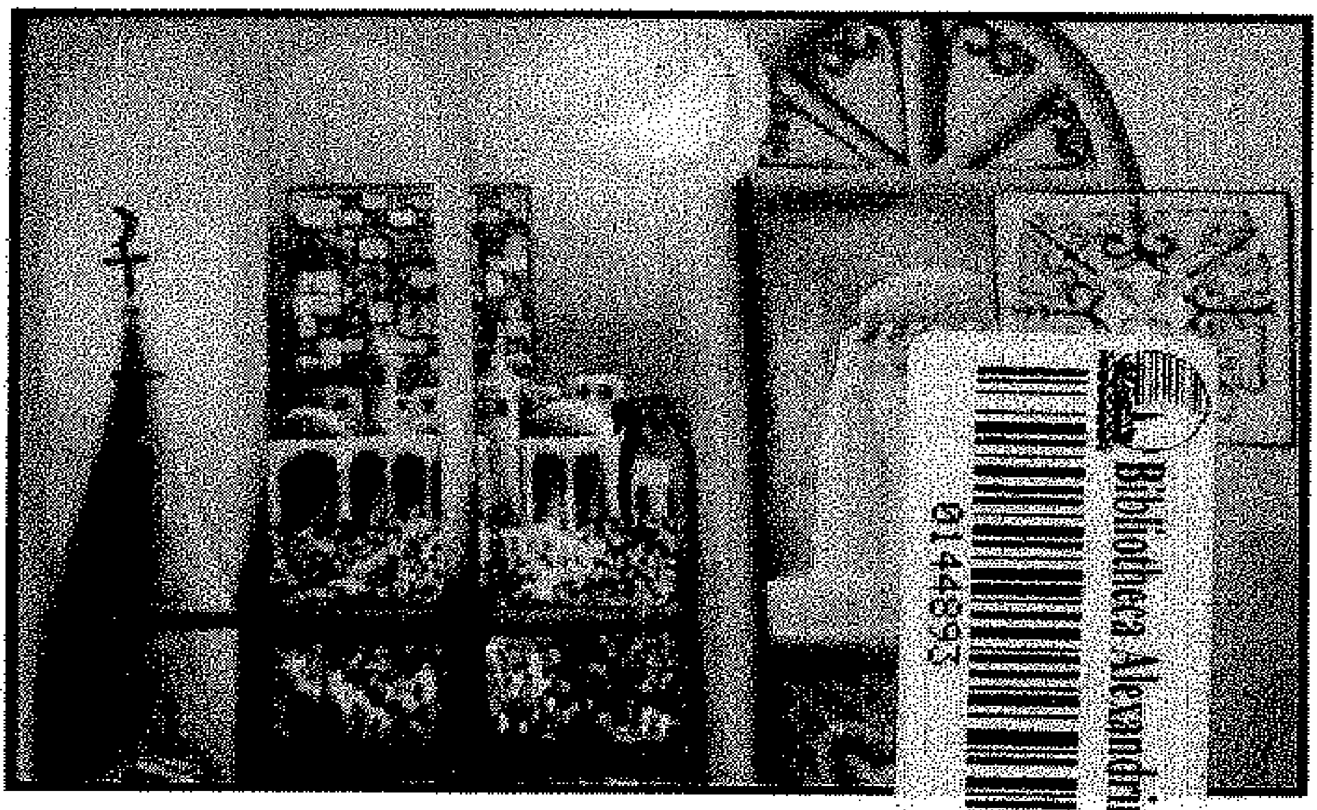
الحُب

بين المسلمين والنصارى في التاريخ العربي



جمع وتأليف
عبد المعين الملوحي

دار الكنوز الأدبية

الحب بين
المسلمين والنصارى
في التاريخ العربي

* الحب بين المسلمين والنصارى في التاريخ العربي
* جمع وتأليف : عبد المعين الملوحي
* الطبعة الأولى ١٩٩٣

* دار الكنوز الأدبية - بيروت
ص. ب : ٧٤٢٦

الحب بين
المسلمين والنصارى
في التاريخ العربي

جمع وتأليف: عبد المعين الملوحي

دار الكنوز الادبية ـ بيروت

اصدار دار الكنوز الادبية

بالتعاون مع الندوة الثقافية النسائية بدمشق

قررت الندوة أن تنشر كتباً لأدباء مرموقين تقديراً لهم واعتزازاً بهم، ولأدباء ناشئين تشجيعاً لهم وتقديراً لمواهبهم. وهي تشكر جميع من آزرها في مشروعها الثقافي هذا.

وبخاصة السيدة الكريمة خيرية رضا سعيد

تمهيد

قالت لي تعاتبني :

أتكتب عن الحب وتنسى هذا الشيب؟

وقلت لها: بل أكتب عن الحب لأنسى هذا الشيب ،لأذكر أيام شبابي

ألم تسمعي قول عمر بن أبي ربيعة

فقلت شكا إلي أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص علي ما يلقى بهند
فذكر بعض ماكنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وعادت تقول وتعاتب :

أتكتب عن الحب في هذا الزمن الصعب ؟

وقلت لها :بل أكتب عن الحب لأخفف أوجاع هذا الزمن الصعب.

صعب على الإنسان ،كل إنسان ،أن يعمل في بناء بيت يسكنه عشرات السنين ،ثم يرى هذا البيت يتهدم على رأسه ، كما يفعل الصهاينة في فلسطين .

لقد دعا أحرار العرب– وأحمد الله أني واحد من أقزامهم – إلى الإخاء بين العربي والعربي ونادوا بأن الدين لله والوطن للجميع ، فإذا كارثة لبنان تنفجر لتنسف كل مادعوا إليه ونادوا به ،وإذا مارون عبود يقتل مرتين : مرة في بيروت الغربية لأن اسمه مارون، ومرة في بيروت الشرقية لأن كنيته ابو محمد،

كانت كل قنبلة تنفجر في بيروت تنفجر في بيتي في دمشق ، كان كل حريق يشب في صبرا وشاتيلا يحرق بيتي ، ولذلك ، ولذلك بالدرجة الاولى ، كتبت.

وقالت تعاتبني مرة ثالثة:

ولم جعلت عنوان كتابك: الحب بين المسلمين والنصارى ، ولم تجعله الحب بين المسلمين والمسيحيين)

وقلت لها:

المسيحيون ينتسبون الى المسيح ،والنصارى ينتسبون الى الناصرى،والمسيح هو الناصري ،انهما اسمان لمسمى واحد ،والخلاف عليهما خلاف لفظي اجوف .

وقالت معترضة:

ماأكثر مانختلف على الالفاظ ، وننسى الجوهر واخيراً ماجدوى الكلام المنمّق والشعر الراقي ونحن نشهد بأم اعيننا :

(١) جيشا عربيا يعاون اسرائيل في احتلال جنوبي لبنان؟

(٢) لواء عربيا يشترك مع اسرائيل في احتلال فلسطين ؟

بهذا الكتاب ، أردت أن أضع لبنة صغيرة في بناء وطني ، نسمة دافئة تعيد الثقة بين النصارى والمسلمين ، لعل الفريقين جميعا يتذكرون قول

البحترى:

شـواجـر ارمـاح تـقـطـع بـينهـم
شواجـر ارحـام مـلـوم قـطـوعـهـا
اذا احتربت يوما فسالت دماوءها
تذكرت القربى فسالت دموعها

ولكن

دعونا الأن من عتاب السيدة ،ودعونا الأن من الشيب واتراحه ومن الشباب وافراحه ودعونا الان من الحرب الجنونية في لبنان ،وتعالوا نتنزه في رياض العاشقين فلعلنا ننسى بعض آلامنا ،وهيهات هيهات!

المقدمة

عندما يقع الحب تتساقط كل الحدود والسدود : سدود الطبقة والعرق واللون والدين ،ولايبقى الاالانسان وخير أنموذج لهذا التساقط تقدمه لنا الكاتبة العربية المبدعه السيدة الفة إدلبي في كتابها "المنوليا في دمشق"

سيدة نبيلة انكليزية ،بيضاء كزهرة المنوليا او كاللبن، كما كان البدو يصفون بياضها الناصع ونصرانية، تحب فتى عربياً بدوياً،اسمر كرغيف الخبز المقمر ،مسلماوتتزوجه وتخلص له خلال ثلاثين عاما.

وهكذا تساقطت الطبقة، وتساقط العرق وتساقط اللون وتساقط الدين امام هذاالحب الطريف العنيف .

أمّا هذه السيدة النبيلةالانكليزية البيضاء المسيحية فهي الكونتيسة (جين دكبي)وامّا ذلك البدوى العربي الصحراوي الاسمر المسلم فهو مُجوِل المُضرب.

تقول السيدة الفة:

(لقد استطاع ذلك الرجل العربي الاصيل البدوي الصحراوي ،ان يُروض من تلك المرأة الشموس ويجعل منها زوجة طيعة وفية كأحسن ماتكون الزوجة الشرقية في ذلك العصر طاعة واستكانة ،فما كانت – جين دكبي – سليلة النبلاء وربيبة القصور والبلاطات ،وخليلة الملوك والعباقرة،

لتأنف من الركوع على ركبتيها امام سيدها وزوجها العربي ، لتغسل له رجليه بالماء فيما اذا عاد متعباً من غزوه ثم تنفض عنه الغبار ثم تقوم وهي تتعثر بثوبها البدوى الفضفاض ،فتقدم له مائدة الطعام، وتقف بين يديه تنتظر أوامره .حتى إذا فرغ من طعامه ،تنحّي المائدة جانباً، ثم تقعد لتأكل ما تبقى عنه ،كما تقضي التقاليد البدوية .كانت تفعل ذلك ،وهي تشعر بالسعادة تغمرها أكثر منها في أي حين..."(١).

أرأيتم كيف يهدم الحبُّ الحدود والسدود،بل إنه فوق ذلك يقلب الأخلاق والطباع ليبقى الانسجامُ بين الحبيب والحبيب.

وتستطرد السيدة ألفة فتقول :عاشت جين مع زوجها البدوي على اتفاق تام وظل حبهما فتياً رغم الشيخوخة ،لم يعرف إلهرمَ أبداً مقدار ثلاثين عاماً كاملة...

في عام ١٨٨١ انتشر في دمشق وباءُ الكوليرا وفر منها أكثرُ السكان ،ولاسيما الأجانب منهم وأبى مجول الفرار، واضطرت جين أن تبقى إلى جانبه فأصيبت بالوباء الفتاك وتوفيت عن أربع وسبعين سنة ،ودفنت في المقبرة البروتستانتية في دمشق .

حضر مأتم جين في الكنيسة جميعُ أعضاء السلك السياسي ،وكان زوجها مجول في صدر المكان ،ولما بدأ رجال الدين تراتيلهم بدا الضيق والاضطراب على وجه زوجها الذي لم يألف هذه الطقوس أبداً،وإذا هو يهرول راكضاً،بقوامه الفارع وبعباءته السوداء من صدر الكنيسة إلى بابها ويخرج راكضاً،مما أثار الضحك وقال بعض الناس :إن مجولاً لم يتم الشوط مع جين إلى نهايته. ولكن سرعان ماظهر بطلان قولهم حين رأوا

(١) المنوليا في دمشق تأليف السيدة إلفة الأدلبي الطبعة الأولى دمشق ١٩٦٤ .

مجول مع حصان جين المفضل ينتظران عند القبر ليودعا الراحلة العزيزة .ولما أهيل عليها التراب سحب زوجها الحصان الأسود الحزين ،وسار بخطا ثقيلة مطأطىء الرأس وهو يكفكف دموعه المنهمرة بغزارة. فأثار هذه المرة أيضا دموع المشيعين .

فماهو هذا الحب الجبار؟

تعريف الحب:

للحب تعريفات كثيرة أقتصر منها على تعريفين اثنين:

١ - أحدهما لفيلسوف الحب العربي الفقيه ابن حزم الأندلسي في كتابه "طوقُ الحمامة في الألفة والألاف"

قال ابن حزم :

الحب -أعزك الله - أوله هزل وآخره جد،دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ،فلاتدرك حقيقتها إلابالمعاناة ،وليس بمنكر في الديانة ولابمحظور في الشريعة ،إذ القلوب بيد الله عزوجل ."

طوق الحمامة٦٠

وأضاف :"وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا ،والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة ،في أصل عنصرها الرفيع...

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لاتجد اثنين يتحابان ،إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية، لابد من هذا - وإن قلَّ - وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة، وتأكدت المودة، فانظر هذا تراه عياناً،وقول رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يؤكده:

"الأرواح جنود مجندة،ماتعارف منها ائتلف،وماتناكر منها اختلف"
(طوق الحمامة ٦١ - ٦٥ في اختصار)

ذلك هو التعريف الذي يضعه ابن حزم للحب ،وترون أنه تعريف (ميتافيزيقي) ينظر إلى رأي افلاطون في المثل العليا التي نرى صورها في الحياة الدنيا،فالحب الأفلاطوني هو الجاذبية التي يمارسها الجمال على الناس ،ولكن الجمال الحقيقي هو الذي يُدرَك بالعقل لا بالحس، والذي ليست جمالات هذه الأرض إلارسوماً أوليةً خشنةً له، وإلاانعكاساتٍ شاحبةً بالنسبةإليه. ٢ وهناك تعريفات وإشارات للحب لاتخرج عن دائرة الأحكام العاطفية ومنها إشارة السيدة أميرة الذرة في كتابها"لقاء مع عيسى بن هشام "ص ١٤" أن اليوم الذي قدم فيه أول رجل زهرة لمحبوبته هو اليوم الذي ارتفع فيه الإنسان فوق مستوى الحيوان".

وتستشهد السيدة ببيت للشاعر :

لولا المحبة في جوانحه ما أصبح الانسان إنسانا

ووصف الجاحظ العشق فقال: هو داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة"

رسائل الجاحظ ص ١١٠

٢ - أما التعريف الثاني فقد جاء في معجم لاروس الكبير قال المعجم :"الحب ميلُ القلب نحو شخصٍ أو شيءيجذبه إليه.

وأظن أن هذا التعريف العلمي أقرب التعريفات إلى الواقع.

وهناك من يقول :

" الهوى إله معبود " ويقول "الحب أقوى من الموت"

ولايعتبر هذان القولان تعريفاً،وإنما هما حكمان من أحكام القيم يشيران

إلى قوته ونتائجه.

وأضاف المعجم:

لم ير الفلاسفة القدماء في الحب – بمعنى الكلمة – إلا الرغبة الجسدية ،ولكن سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة الرواقيين وبلوتارك رأوا فيه عواطف أكثر رفعة ورقة.

ويؤسفني ان هذا المعجم الذي يفرض فيه أن يكون علمياً لايذكر اسم فيلسوف عربي واحد رأى في الحب المثل الأعلى والتقاء روح المحب بروح الحبيب ولايشير إلى الشعراء العذريين في العرب ،الذين ضربوا أروع الأمثلة في الحب العفيف العنيف.

وماذا نصنع إذاكان العلم لايتقيد أحياناًبشروط العلم؟

أنواع الحب

وجاء في المعجم :

وللحب أنواع كثيرة:

١ – حب الوطن ،وهو الحب الأول بعد حب الله – كما يقول فيرلين

٢ – الميل الطبيعي أو العاطفي :الذي يدعو أحد الجنسين إلى الجنس الآخر

٣ – الحب اللحمي أو الشهواني :الذي لايرى في المحبوب إلا الجسد واللحم

٤ – الحب الحر :وهو الذي لايتقيد بإنسان واحد ،بل يجد مايرضيه في كل جسد.

٥ – الحب الصوفي :وهو الذي يتجه إلى الله بدلا من الاتجاه إلى الأرض

٦ – حب الإنسانية :وهو الذي يسمو عن المصالح الفردية والطبقية

ويرتفع إلى الإنسان في كل مكان.

٧ - حب الذات:وهو العاطفة التي تدفعنا إلى حفظ ذاتنا وتطور فرديتنا،وهو في شكله السامي يحثنا على إرضاء أكثر ميولنا غيرية واجتماعية،وليس حب الذات مناقضاًلحب الآخرين.

وسنقتصر في هذا البحث على النوع الثاني ،على الحب العاطفي الذي يختلط كثيراًبالنوع الثالث،بالحب الجسدي،ونخص البحث بما عرفه التاريخ العربي من هذين النوعين من الحب بين المسلمين والنصارى في العهود الماضية.

علامات الحب:

وقبل أن نشرع في هذا الموضوع أرى أن أنقل هذا الباب النفسي الرائع الذي أورده ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" وسماه"علامات الحب"

قال ابن حزم:

"وللحب علامات يقفوها الفطن،ويهتدي إليها الذكي: فأولها إدمان النظر - والعين باب النفس المشرع (المفتوح) وهي المنقبة عن سرائرها..فترى الناظر لايطرف،يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه،ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس...

ومنها الاقبال بالحديث فما يكاد يقبل على سوى محبوبه،ولو تعمد ذلك..والإنصات إلى حديثه إذا حدث ...وتصديقه وإن كذب،وموافقته وإن ظلم ،والشهادة له وإن جار،واتباعه كيف سلك ...ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ،والتعمد للقعود قربه،والدنو منه،والتباطؤ في المشي عند القيام عنه.

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة...

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة...

ومنها أن يجود المرء بكل مايقدر عليه مما كان يمنعه قبل ذلك ،كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغب في نفسه ،فكم من بخيل جاد،وقطوب تَطَلَّقَ(ابتسم)وجبان تشجع، وغليظ الطبع تظرف ، وجاهل تأدب...

ومن أعلامه:أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام في أخباره ..

ومن علاماته :حب الوحدة والأنس بالانفراد ونحول الجسم والسهر من أعراض المحبين ،وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب وواصفو طول الليل..."

وأضاف ابن حزم :

"وإني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده بزيارة ،فما كنت أراه إلا جائياً وذاهباً لايقر به قرار...

ومن أعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة للقلب عندما يرى إعراض محبه عنه ....

والبكاء من علامات الحب ...ولكن الناس يتفاضلون فيه ،فمنهم غزير الدمع ومنهم جمود العين ،عديم الدمع ..

ويعرض في الحب سوء الظن،واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها عن وجهها، وهذا أصل العتاب بين المحبين...

ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل مايقع منه...

باب (علامات الحب) ٧٠ – ٨٢ في اختصار)

علامات الحب عند الوشاء

جاء في كتاب "الموشى" ص٧٦

وأعلم أن أول علامات الهوى على ذي الأدب نحول الجسم وطول السقم واصفرار اللون ،وقلة النوم وخشوع النظر ،وإدمان الفكر وسرعة الدموع ،وإظهار الخشوع وكثرة الأنين،وإعلان الحنين،وانسكاب العبرات وتتابع الزفرات،ولايخفى المحب وإن تستر،ولاينكتم هواه وإن تصبر.

أسماء الحب

للحب عند العرب أسماء كثيرة،وقد قيل : كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى .وقد أورد ابن أبي حجلة في كتابه - ديوان الصبابة - بعض اسماء الحب ودرجاته فقال:

١ - الهوى: وهو ميل النفس

٢ - العلاقة: وهو الحب الملازم للقلب

٣ - الكلف: وهو شدة الحب وأصله من الكلفة وهي المشقة

٤ - العشق وهو فرط الحب ،والعاشقة هي اللبلابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الشجر

٥ - الشغف : وهو إصابة شغاف القلب أي حبة القلب

٦ - الشعف: (بالعين المهملة)وهوإحراق الحب للقلب

٧ - الجوى : وهو الهوى الباطن

٨ - التتيم: وهو أن يستعبده الحب

٩ - التبل: وهو أن يسقمه الهوى

١٠ - التدله: وهو ذهاب العقل من الهوى

١١ - الهيام: أن يهيم على وجهه لغلبة الهوى عليه

ومن أسماء الحب:

الصبابة – المقة – الوجد – الدنف – الشجو – الشوق – البلبال – التباريح – الشجن – الوصب – الكمد – الأرق والسهر – الحنين – الود – الخلة – الغرام – الوله.

ويعتذر ابن أبي حجلة بعد أن أورد ثمانية وعشرين اسماًللحب فيقول:"ولعل للحب أسماء غير هذه الأسماء كلها ،وهي مشتقة من حبة القلب وهي سويداؤه."

الحب بين المسلمين والنصارى

لمحة تاريخية

وقف المسلمون من النصارى كما وقف النصارى من المسلمين موقفاً ودياً منذ بدء الإسلام وإليكم بعض مظاهر هذا الود:

١ – قام النصارى بحماية العرب المسلمين في أول عهد الإسلام وحدث ذلك في السنة الخامسة من البعثة حين هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراًمن العرب المشركين فحماهم النصارى وأكرمهم النجاشي . وقال هؤلاء المهاجرون معترفين بالجميل: قدمنا أرض الحبشة، فجاورنا بها خير جار، أمنّا على ديننا، وعبدنا الله،لانؤذى ولانسمعُ شيئا نكرهه.

الطبري ٢: ٣٢٩

وتمت الهجرة الأولى بعد ماحل بالمسلمين من المشركين من بلاء .

قال الطبري:٢:٣٣١

لما رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يصيب أصحابه من البلاء (وماهو فيه من العافية بمكانه من الله وعمه أبي طالب) وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم:

"لو خرجتم إلى أرض الحبشة ،فإن فيها ملكا لايُظلم أحدعنده ،وهي

أرضُ صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاًمما أنتم فيه.

وورد في الطبري ٢:٣٣٥

(ولما استقر بالذين هاجروا إلى أرض الحبشة القرار بأرض النجاشي واطمأنوا ،تآمرت قريش فيما بينها ...فوجهوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي إلى النجاشي مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم من قبله وبأرضه من المسلمين...فرجعا مقبوحين .)وردهما النجاشي رداً حاسماً.

وللمناقشة التي جرت بين قريش والنجاشي قصة طريفة ليس هذا موضعها. وقام النصارى بحماية المسلمين مرة ثانية في الهجرة الثانية الى الحبشة.

٢ - ثم إن النجاشي هو الذي زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان (أخت معاوية)من النبي صلى الله عليه وسلم . جاء في طبقات ابن سعد ٨:٦٨"، وأرسل إليها (إلى أم حبيبة) يخطبها وعهد للنجاشي (ملك الحبشة) بعقد نكاحه عليها ،ووكلت هي خالد بن سعيد بن العاص وأصدقها النجاشي من عنده أربعمائة دينار وذلك سنة ٧ .

وجاء في رسائل الجاحظ ص ١٤٧ في كتاب فخر السودان على البيضان : والنجاشي هو كان زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم ودعا خالد بن سعيد (بن العاص بن أمية بن عبد شمس)فجعله وليها وأصدقها عن النبي أربعمائة دينار.

٣ - النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين

وقد ورد هذا الحكم في القرآن الكريم :

قال الله تعالى :

(لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذي قالوا :إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسينَ ورهباناً وأنهم لايستكبرون")

سورة المائدة الآية ٨٢

٤ – عندما توفي النجاشي في الحبشة، صلى عليه النبي (ص) في المدينة.

جاء في ابن عساكر ج ٤٢ ص ٣٠٧ :

"... عن جابر أن النبي صلى على النجاشي وكنت في الصف الثاني، فكبّر عليه أربعاً...وقد توفي النجاشي في السنة التاسعة من الهجرة.

٥ – عندما ولدت ماري القبطية ابراهيم بن رسول الله أصبح القبط النصارى اخوالا للمسلمين. والمرء يكرم خاله.

جاء في تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٩٦:١ " روى البيهقي بسنده الى ابن عباس أنه لما مات ابراهيم بن النبي (ص) قال:...لو عاش لأعتقت اخواله من القبط...

٦ – قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق يوصي قواده: وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع،فدعوهم ومافرّغوا أنفسهم له.

الطبري ٢٢٧:٣

٧ – ورد في المعاهدة التي تمت بين عمر بن الخطاب وأهل إيلياء ما يأتي:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها ،وسائر ملتها: أنه لاتُسكَنُ كنائسهم ولاتهدم ، ولايُنتقص منها ولامن حَيّزها ولامن

صليبهم،ولامن شيء من أموالهم، ولايكرهون على دينهم ولايُضارُّ أحد منهم)

الطبري ٣:٦٠٩

ولايجوز لنا أن ننسى موقف عمر حين رفض الصلاة في الكنيسة كيلا يدعيها المسلمون بعد ذلك.

٨ – وقف كثير من القبائل العربية النصرانية إلى جانب العرب المسلمين في حروبهم في الشام ،وأعفاهم المسلمون من دفع الجزية، صونا لكرامتهم .

هذه المواقف العامة من الود بين المسلمين والنصارى لم تلبث أن تحولت إلى مواقف فردية من الحب ،كانت مثالاً للإخلاص والوفاء حيناً وكانت طريقاًإلى العذاب وإلى الموت حيناًآخر .

فأين نجد هذه المواقف ؟

ونبدأ بموقف المسلمين من الصليب بعد قليل.

بعض الكتب العربية التي تتحدث عن الحب عند العرب.

١ – الموشى:للوشاء (محمد بن أحمد) (٠٠٠ ـ ٣٢٥ هـ)(٠٠٠ ـ ٩٣٧م)

٢ – طوق الحمامة :لابن حزم الأندلسي (علي بن أحمد) (٣٨٤ – ٤٥٦هـ)(٩٨٤ – ١٠٦٤م)

٣ – مصارع العشاق :للسراج البغدادي (جعفر بن أحمد)(٤١٧ – ٥٠٠)(١٠٢٧ – ١١٠٦م)

٤ – ذم الهوى :لابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي)(٥٠٨ – ٥٩٧ هـ)(١١١٤ – ١٢٠١م)

٥ – روضة العاشق لأحمد بن سليمان، المتوفى سنة ٦٣٥ هـ

٦ – منازل الأحباب ومنازه الألباب ل(محمود سلمان الحلبي)(٦٤٤ – ٧٢٥هـ) (١٢٤٧ – ١٣٢٥م)

٧ – الواضح المبين في من استشهد من العاشقين لـ(مغلطاي بن قريج (٦٨٩ – ٧١٢هـ) (١٢٩٠ – ١٣٦١م)

٨ – ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني (أحمد بن يحيى)(٧٣٥ – ٧٧٦ هـ)(١٣٢٥ – ١٣٧٥م)

---

* كنت أريد أن أكتب تراجم موجزة لأصحاب هذه الكتب، ثم بدا لي أن أترك للذين يحبون الزيادة أن يطلعوا عليها في كتب التراجم عامة وفي "الأعلام" على الخصوص.

٩ - أسواق الأشواق لإبراهيم بن عمر البقاعي (٨٠٩ - ٨٨٥هـ) (١٤٠٦ - ١٤٨٠) اختصر به مصارع العشاق .

١٠ - تزيين الأسواق في أخبار العشاق لداوود الأنطاكي (٠٠٠ - ١٠٠٨ هـ) (٠٠٠ - ١٦٠٠م)

وهنالك مصادر كثيرة عامة تورد أخبار بعض العشاق ، وعلى رأسها الأغاني ،وعيون الأخبار ووفيات الأعيان(*) إلخ.....

الباب الأول

الفصل الأول

المسلمون والصليب

حظي الصليب باحترام كثير من المسلمين وحبهم ، وأثار – وهو شعار المسيحية – خيال الشعراء،ونحن نجد كثيراً من الأشعار في الصليب لانكاد نحصرها عداً .على أننا نكتفي ببعض ماورد فيه في كتابنا هذا

أظن أجمل بيتين في الصليب هما قول القائل

لما رأيت صليبَها
يزهو على الصدر الفسيح
ناديت من ألم الجوى
ياليتني كنتُ المسيح

وهذه الأمنية ترددت في شعر مدرك بن علي الشيباني الذي قال في قصيدته المزدوجة – انظر بحثه – :

ياليتني كنت له صليبا
أكون منه أبداًقريبا
أبصر حسناً وأشم طيبا
لاواشياً أخشى ولارقيبا

وهذا خالد بن يزيد بن معاوية (أنظر بحثه)يتنصر ويعلق الصليب في عنقه،إذا تنصرت حبيبته :

فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري
يعلق رجال فوق أعناقهم صُلبا
وروي
يخط رجال بين أعينهم صلبا

وهذا عاشق حموي (أنظر خبره)تقول له حبيبته النصرانية:

– إن أحببتني فاكو على رأسك صليبا فكوى على رأسه الصليب.

قال الصلاح الصفدي في تاريخه :وأنا رأيته.

وعبد الله بن العباس بن الفضل (انظر خبره) يلثم الصليب مراراً إرضاء للحبيب:

كم لثمت الصليب في الجيد منها
كـهـلال مـكـلـل بـشـمـوس

والسراج البغدادي (انظر خبره)في كتابه مصارع العشاق يتمنى أن يكون صليبا :

فـتـمـنـيـت أن أكـون صـلـيـبـا
يـوم قـربـانـه فـأقـرع سـنـا

بل إن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (انظر خبره)يتمنى أن يكون صليباولو دخل جهنم .

مـازلـت أرمـقـهـا بـعـيـني وامـق
حـتـى بـصـرت بـهـا تـقـبـل عـودا
عودًالصليب فويح نفسي من رأى
مـنـكـم صـلـيـبـا مـثـلـه مـعـبـودا؟

فسألت ربي أن أكون مكانه
وأكونَ في لهبِ الجحيم وقودا

وديك الجن الحمصي (انظر خبره) الذي أحب ورداً النصرانية حباً مفترساً يقسم بمكان الصليب في جيدها فيقول :

لاومكان الصليب في النحر
منك ومجرى الزنار في الخصر

أليس في حب الصليب واحترامه حب لأصحاب الصليب؟

الفصل الثاني

في أخبار من أحب النصارى لأن أمه منهم وبنى لهم كنيسة.

١ – والٍ من المسلمين

. أحب النصارى لأن أمه منهم وبنى لهم كنيسة وهو خالد بن عبد الله القسري [١].

ورد في الأعلام ٢ ، ٣٨ ٣

خالد بن عبد الله القسري (٦٦ – ١٢٦هـ)و(٦٨٦ – ٧٤٣م)

... أمير العراقين ،وأحد خطباء العرب وأجوادهم ،يماني الأصل من أهل دمشق.

ولي مكة سنة ٨٩ هـ، للوليد بن عبد الملك ، ثم ولاه هشام العراقين

---

(١) المصادر الأعلام ٢ : ٣٣٨ الأغاني)الدار(٢: ١ – ٣٠ ، تهذيب ابن عساكر ٥ : ٧٠ – ٨٣ . الوفيات ١: ١٦٩ تهذيب التهذيب ، والبداية والنهاية وابن خلدون ٣: ١٠٥ وما قبلها وابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ثم ٥ : ١٠١ ورغبة الآمل ٦: ٢٢٩ ....

(الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ ،فأقام بالكوفة ،وطالت مدته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة،ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد ،وكان خالد يرمى بالزندقة وللفرزدق هجاء فيه "ووردت في تهذيب ابن عساكر ترجمة طويلة له ٥:٧٠ - ٨٣ وجاء فيها :

.... وداره بدمشق هي الدار الكبيرة التي بمربعة القز ،وتعرف اليوم بدار الشريف الزيدي وإليه ينسب الحمام الذي يقابل باب قنطرة سنان بباب توما ...

وورد في الأغاني (الدار) ١٤:٢٢

كانت أم خالد رومية نصرانية ،فبنى لها كنيسة قبلة المسجد الجامع بالكوفة ،فكان إذا أراد المؤذن في المسجد أن يؤذن ضُرِب لها بالناقوس ،وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءاتهم. وقال في موضع آخر ١٨:٢٢

كان خالد بن عبد الله زنديقاً ،وكانت أمه رومية نصرانية وهبها عبد الملك لأبيه.

وجاء الفرزدق خالد بن عبد الله يستحمله في ديات حملها فرده خالد رداً قبيحاً وأولع الفرزدق بهجائه فمما قال فيه ؛ وكان قد وضعه في السجن (الاغاني ٢١:٢٢) ورغبة الآمل في كتاب الكامل ٢:٧٦و٦:٢٣٠

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
فعجل هداك الله نزعك خالدا
بنى بيعة فيها الصليب لأمه
وهدم من بغض الإله المساجدا

فبعث هشام بن عبد الملك إلى خالد رسولا يأمره باطلاق الفرزدق

فأطلقه فقال الفرزدق يهجو خالداً القسري:

الا لعن الرحمن ظهر مطية
أتتنا تخطى من بعيد بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأمه
تدين بأن الله ليس بواحد

وهكذا أحب خالد بن عبد الله القسري والي مكة ثم العراقين أمه النصرانية وبنى لها كنيسة قرب الجامع تقرع أجراسها إذا أذن المؤذن،وترتفع أصوات المصلين فيها إذا صعد الخطيب منبر المسجد، ولكن خالداً أساء إلى الفرزدق الشاعر وحبسه فهجاه الفرزدق وهجا أمه، وليت خالدا لم يسيء للفرزدق وليت الفرزدق لم يهجه، وقديماً قيل : "وعداوة الشعراء بئس المقتنى"

هذا بعض حب المسلمين للنصارى بسبب النسب والولادة.

الفصل الثالث

الصداقة بين المسلمين والنصارى

من أحب النصارى لصداقة بينهم

ومنهم طخيم بن أبي الطخماء الأسدي (*) ، وهو شاعر في العصر الأموي في زمن هشام بن عبد الملك وولاية يوسف بن عمر الثقفي للكوفة ، وكان ينادم جماعة من نصارى الحيرة ،فحمد منادمتهم فقال (**) :

---

* هو في أكثر المصادر طخيم بن أبي الطخماء الأسدي وأوردها الجاحظ لأبي الطمحان الأسدي، (٥ : ١٥٧) وقال محقق كتاب الحيوان:
(والذي يظهر لي انهما شخص واحد، وأن " أبا الطمحان" كنية طخيم الاسدي، ومما يرجح ذلك ما ورد في الاغاني (٧: ١١٥ ساسي) قال: شرب طخيم الاسدي بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المري وكان على شرط يوسف بن عمر فحلق رأسه.)
** وردت الابيات في كثير من المصادر منها الحيوان: ٥:١٥٧ – ١٥٨ و الحماسة الشجرية ٥٦٤ – ٥٦٥ ، ورغبةالآمل في كتاب الكامل ١: ١٥٢ – ١٥٣ ، والمؤتلف ١٥٠ ومعجم البلدان (بروقتان و(زورة) ...

الأبيات
١ – في معجم مااستعجم : زُورة بضم أوله وبالراء المهملة في آخره:موضع في الحيرة.وورد البيت في المؤتلف والحيوان:

١ – كأن لم يكن يوماً بزورة صالح
وبالقصر ظل دائم وصديق
٢ – ولم أرِدِ البطحاء يمزج ماءَها
شرابٌ من البروقتين عتيق
٣ – معي كل فضفاض القميص كأنه
إذا ماسرت فيه المدام فنيق
٤ – بنو السمط والحدّاء كلٌ سميدع
له في العروق الصالحات عروق
٥ – وإني وإن كانوا نصارى أحبهم
ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

ومع ذلك فنحن نأخذ عليه قوله: وان كانوا.

تعليق :

قال الجاحظ : وقال أبو الطمحان الأسدي ، وكان نديماً لناس من بني

كأن لم يكن بالقصر قصر مقاتل وزورة ظل ناعم وصديق
وصالح في الرواية الأولى اسم يكن ومعناه :رجل صالح
٢ – في معجم مااستعجم : البروقتان ماءة هناك ، وقال ياقوت في معجمه وجدت بخط بعض أئمة الأدب برووقتين بواوين الأولى مضمومة وهو موضع بالكوفة . وفي المؤتلف والحيوان :أمزج ماءها بخمر...
٣ – في المؤتلف والحيوان :إذا ماجرت فيه المدام . الفنيق: الفحل الكرم من الإبل .
٤ – في المؤتلف والمختلف : بنو الصلت والحدّاء وقيل الجداء . بالجيم .... قبيلة في الحيرة ، وفي بعض المصادر في خصال الصالحين . السميدع :السيد الموطأ الأكناف.
٥ – في المؤتلف:وترتاح نفسي .
ويتوق :يشتاق .

الحداء – وكانوا نصارى – فأحمد ندامهم ، ثم أورد الأبيات .. وورد في الأغاني (٧: ١١٥ ساسي) فقال : شرب طخيم الأسدي بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المري ، وكان على شرط يوسف بن عمر فحلق رأسه.

وقال أبو العباس (المبرد): أنشدني هذا الشعر أبو مُحَلم ثم أنشدنيه رجل نصراني يكني أبا يحيى ،شاعر من هؤلاء القوم الذين مدحوا به ،وذكر أنه يذكر طخيماً ، وهو يتردد إليهم ويظل عندهم .

قال هذا النصراني – وهو رجل من بني الحداء ، قال :أذكره وأنا صغير جداً ، والسلطان يطلبه لقوله :له في العروق الصالحات عروق) يقول : أتقول هذا لقوم من النصارى ، وكان هذا النصراني قد قارب مائة سنة .

وفي هامش رغبة الآمل : يريد أن السلطان أنكر عليه وصفهم بذلك . كأن العروق الصالحات مقصورة على عرق دون سائر العروق وعلى مذهب دون سائر المذاهب .

وإذا كان طخيم لقي عنتاً من الوالي لأنه مدح قوماً من النصارى ، ولأنه ذكر أن لهم عروقاً صالحة فإنا نأخذ عليه قوله:

(وإن كانوا نصارى) وياحبذا لو حذف (وإن)هذه فهي تدل على تحفظ لايجوز أن يقترن بمدح ، وياليته قال :

وإني – وهم قوم نصارى – أحبهم
ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

ولو فعل ذلك لسلم له مدحه من استدراكه بـ(إن) أولاً ولم يزد إنكار السلطان عليه هذا المدح ثانياً .

يبقى طخيم بن أبي الطخماء من أول من قرر في الشعر العربي وجود الصداقة بين الناس من مختلف الأديان ، في ذلك العصر الأموي البعيد .

ومنهم عبدالله بن العباس بن الفضل (*) ، وقد رأى في الشماس أخا له وفي القسيس أباه.

جاء في معجم البلدان (دير قوطا)(**)

قال ابن العباس (***) :

١ - يادير قوطا لقد هيجت لي طربا
أزاح عن قلبي الأحزان والكربا

٢ - كم ليلة فيك واصلت السرور بها
لما وصلت به الأدوار والنخبا

٣ - في فتيةبذلوافي القصف ماملكوا
وأنفقوا في التصابي العرض والنشبا

٤ - وشادن مارات عيني له شبها
في الناس لا عجما منهم ولا عربا

٥ - إذا بدا مقبلاً ناديت: واطربا
وإن مضى معرضاً ناديت:واحربا

٦ - أقمت بالدير حتى صار لي وطنا
من أجله ولبست المسح والصُّلبا

٧ - وصار شماسه لي صاحباً وأخا
وصار قسيسه لي والداً وأبا

(*) عبد الله بن العباس بن الفضل (وليس المفضل كما ورد خطأ في مصارع العشاق المطبوعة ٢: ٢٠٥ . عاش في زمن المعتصم، وأخباره في مختار الأغاني ٨ : ١٠٩ .

(* *) دير قوطا: في (معجم البلدان) بالبردان من نواحي بغداد على شاطىء دجلة وهو نزه كثير البساتين والمزارع.

(* * *) التخريج: معجم البلدان (دير قوطا).

(٢) الأدوار: يريد الغناء . (٣) العرَض (بفتح العين) متاع الحياة.

يصادق ويغازل ويسكر

ومنهم محمد بن أبي أمية:

ورد في معجم البلدان (دير الجاثليق) (*):

قال الشابشتي : دير الجاثليق عند باب الحديد قرب دير الثعالب في وسط العمارة بغربي بغداد ، وأنشد لمحمد بن أبي أمية فيه :

١ - تذكرت دير الجاثليق وفتية
بهم تم لي فيه السرور وأسعفا

٢ - بهم طابت الدنيا وأدركني المنى
وسالمني صرف الزمان وأتحفا

٣ - ألارب يوم قد نعمت بظله
أبادر من لذات عيشيَ ماصفا

٤ - أغازل فيه أدعج الطرف أغيدا
وأسقى به مسكية الريح قرقفا

٥ - فسقيا لأيام مضت لي بقربهم
لقد أوسعتني رأفة وتعطفا

٦ - وتعساً لأيام رمتني ببينهم
ودهر تقاضاني الذي كان أسلفا

(*) دير الجاثليق (في معجم البلدان)، دير قديم البناء، رحب الفناء من طسوج مسكن قرب بغداد في غربي دجلة.

(٤) القرقف: الخمر.

حب جماعي

قال أبوبكر محمد بن طناب اللبادي (لأنه كان يلبس لبداً أحمر) في دير أحويشا(*).

١ - وفتيان كَهمْلٍ من أناس
خفاف في الغدو وفي الرواح

٢ - نهضت بهم ،وستر الليل ملقى
وضوء الصبح مقصوص الجناح

٣ - نؤم بدير أحويشا غزالا
غريب الحسن كالقمر اللياح

٤ - وكابدنا السرى شوقاً إليه
فوافينا الصِّباح مع الصباح

٥ - نزلنا منزلاً حسناً أنيقا
بما تهواه معمور النواحي

٦ - قسمنا الوقت فيه لاغتباق
على الوجه المليح ولاصطباح

٧ - وظللنا بين ريحان وراح
وأوتار تساعدنا فصاح

٨ - وساعفنا الزمان بما أردنا
فأبنا بالفلاح وبالنجاح

معجم البلدان (دير أحويشا)

(*) دير أحويشا: (في معجم البلدان) وأحويشا بالسريانية الحبيس، وهو بإسعرت، مدينة بديار بكر.
(١) هَمْل: وأصلها هَمَل العاطلون عن العمل المتروكون ليلاً ونهاراً.
(٣) اللياح: الأبيض الناصع.
(٤) الصباح: (بكسر الصاد) جمع صبيح، والصباح (بفتح الصاد) الوقت المعروف.
(٦) الاغتباق: شرب المساء، والاصطباح: شرب الصباح.

الفصل الرابع

أربعة خلفاء مسلمين يحبون ويتزوجون أربع نصرانيات

١ ـ عثمان بن عفان
٢ ـ معاوية بن أبي سفيان
٣ ـ الوليد بن يزيد الأموي
٤ ـ المتوكل بن المعتصم العباسي

١ـ عثمان بن عفان:

جاء في كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام للأب لويس شيخو اليسوعي ما يلي في اختصار:

نائلة بنت الفرافصة زوجة الخليفة عثمان:

هي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص... من كلب النصارى...

قال الطبري... وفي هذه السنة تزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة،

وكانت نصرانية... فتحنثت [كذا] قبل أن يدخل بها[1] .... فلما حملت (إلى عثمان) كرهت الغربة وحزنت لفراق أهلها فأنشأت تقول لأخيها ضب: (الطويل)

ألست ترى يا ضب بالله أنني مصاحبة نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حزناً تخن ركابهم كما حركت ريح يراعاً مثقبا
لقد كان في أبناء حصن بن ضمضم
لك الويل ما يغني الخباء المطنبا
قضى الله حقاً أن تموتي غريبة بيثرب لا تلقين أماً ولا أباً

٢ ــ معاوية بن أبي سفيان

ميسون بنت بحدل الكلبية "زوجة معاوية وام يزيد"

وجاء في شعراء النصرانية بعد الاسلام ٦٣ - ٦٤ في اختصار

هي امرأة أخرى من نصارى كلب وأبوها بحدل بن أنيف... وهي زوج معاوية بن أبي سفيان وأم ابنه يزيد.... وكانت بدوية فلما اتصلت بمعاوية ونقلها من البدو إلى الشام ضاقت نفسها لما تسرى عليها وكانت تكثر الحنين إلى أناسها والتذكر لمسقط رأسها فعذلها على ذلك وقال لها: انت في ملك عظيم وما تدرين قدره وكنت قبل اليوم في العباءة فقالت (من الوافر):

لبيت تخفق الارواح فيه أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

---

(١) الطبري ٤ : ٢٦٣ حوادث سنة ٢٨ هـ

وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب إلي من أكل الرغيف
وكلب ينبح الطراق دوني أحب إلي من قط ألوف
وبكر يتبع الاظعان صعب أحب إلي من بغل زفوف
و أصوات الرياح بكل فج أحب إلي من نقر الدفوف
وخرق من بني عمي نحيف أحب إلي من علج عليف
خشونة عيشتي في البدو اشهى إلى نفسي من العيش الظريف

فلما سمع معاوية الأبيات قال لها: ما رضيت يا ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عليفاً قال اللخمي فطلقها وألحقها وقال لها: كنت فبنت فقالت: لا و الله ما سررنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بنا ويقال إنها كانت حاملاً بيزيد فوضعته في البرية فمن ثم كان فصيحاً....

٣ ـ الخليفة الوليد بن يزيد يعشق نصرانية ثم يتزوجها

الوليد بن يزيد (٨٨ – ١٢٦ هـ) (٧٠٧ – ٧٤٤ م)(*).

جاء في الأعلام ٩ : ١٤٥:

من ملوك الدولة المروانية بالشام ، كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم ، يعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء ، له شعر رقيق وعلم بالموسيقى ... ولي الخلافة سنة (١٢٥ هـ) بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك ،فمكث سنة وثلاثة أشهر ، ونقم عليه الناس حبه للهو فبايعوا سراً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك . فنادى بخلع الوليد ... وقصده جمع من أصحاب يزيد فقتلوه في قصر النعمان بن بشير ... وحمل رأسه إلى

(*) بعض المصادر: ابن الأثير ٥: ١٠٣/ اليعقوبي ٣:٧١/ الطبري ٨:٦٥ ، ٢٨٨ و ٩:٢/ الأغاني الدار ٧:١و٩ : ٢٧٤ ...

دمشق فنصب في الجامع ، ولم يزل أثر دمه على الجدار إلى أن قدم المأمون دمشق (سنة ٢١٥ هـ) فأمر بحكه.

قصة حبه وزواجه

ورد في كتاب (تزيين الأسواق في أخبار العشاق، لداوود الأنطاكي الطبيب الأعمى (:ص ٢٥٠ - ٢٥١ :

حكي عن الوليد بن يزيد أنه عشق نصرانية ، وراسلها فأبت عليه، فكاد أن يطيش عقله ،فتنكر يوم عيد للنصارى ، وبايع صاحب بستان تتنزه فيه بنات النصارى فأدخله ، فلما رأته قالت للبواب: - من هذا ؟ قال لها: مصاب ، فجعلت تمازحه حتى اشتفى بالنظر إليها ،فقيل لها أتدرين من هذا ؟ قالت لا قالوا لها : هو الخليفة ، فأجابت حينئذ وتزوج بها ، وفيها يقول :

١ - أضحى فؤادك يا وليد عميدا
صباً قديما للحسان صيودا
٢ - من حب واضحة العوارض طفلة
برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
٣ - مازلت أرمقها بعيني وامق
حتى بصرت بها تقبل عودا
٤ - عود الصليب فويح نفسي من رأى
منكم صليبا مثله معبودا

شرح الألفاظ:
١ ـ العميد : الذي هده العشق. صيود: كثير الصيد.
٢ ـ العوارض: الأسنان.
٣ ـ الوامق: المحب.

٥ - فسألت ربي أن أكون مكانه
وأكون في لهب الجحيم وقودا

وفي ذلك يقول أيضاً لما اشتهر أمره بها :

١ - ألا حبذا سعدى وإن قيل إنني
كلفت بنصرانية تشرب الخمرا
٢ - يهون علينا أن نظل نهارنا
إلى الليل لاأولى نصلي ولاعصرا

وكان يقال : لم يبلغ مدرك (*) هذا المبلغ ، لأنه لم يطلب إلا أن يكون صليبا في خصرها .

وورد في مصارع العشاق للسراج البغدادي أن اسم المرأة (سفرى) ثم نقل رأي القاضي أبي الفرج المعافى قال القاضي :

لم يبلغ مدرك الشيباني هذا الحد من الخلاعة إذ قال في عمرو النصراني

يا ليتني كنت له صليبا
فكنت منه أبداً قريبا
ابصر حسناً وأشم طيبا
لا واشياً أخشى ولارقيبا
مصارع العشاق ٢: ١٦٨ - ١٦٩

---

٥ ـ يتمنى الخليفة أن يكون صليبا تقبله ولو كان مصيره إلى النار.
١ ـ كلفت: أحببت: وكان الوليد مستهتراً بالخمر، كثير الشرب لها.
٢ ـ يهون على الوليد ألا يصلي الصبح، وهي الصلاة الأولى، ولا العصر.
(*) عاشق من العشاق المشهورين ستمر سيرته فيما بعد.

الوليد بن يزيد في دير بَوّنَا(*)

اجتاز به (بدير بونا) الوليد بن يزيد فرأى حسنه فأقام به يوماً في لهو ومجون وشرب ،وقال فيه:

١ - حبذا ليلتي بدير بَونًا
حيث نسقى شرابنا ونغنى
٢ - كيف مادارت الزجاجة درنا
يحسب الجاهلون أنّا جننا
٣ - ومررنا بنسوة عطرات
وغناء وقهوة ،فنزلنا
٤ - وجعلنا خليفة الله فطرو
س مجونا، والمستشار يُحنّا
٥ - فأخذنا قربانهم ثم كفرنا
لصلبان ديرهم فكفرنا
٦ - واشتهرنا للناس حيث يقولو
ن إذا خُبّروا بما قد فعلنا

(معجم البلدان دير بونا)

٤ ـ خليفة آخر هو المتوكل العباسي يتزوج نصرانية

جاء في تزيين الأسواق ١: ٢٤٩ - ٢٥٠ :

---

*) دير بونا (في معجم البلدان): بفتح أوله وثانيه وتشديد النور: بجانب غوطة دمشق في أنزه مكان، وهو أقدم أبنية النصارى يقال: إنه بني على عهد المسيح ـ عليه السلام. أو بعده بقليل.

(٣) القهوة: الخمرة

(٤) فطروس: هو بطرس ويحنا : هو يوحنا.

(٥) كَفَرنا: خضعنا وسجدنا.

قال بعض الحمدونية :

صحبت المتوكل إلى الشام ، وكنت مغرماً بالفراديس لظرفها فحين بلغناها قال المتوكل :– هل لك في أن نتصفح الكنائس والرياض فنتنزه فيها فقلت نعم ، فأخذ بيدي وجعلنا نستقرىء الأماكن ونشاهد ما فيها من العجائب وحسن ثياب النصارى ، حتى خلوت براهب الكنيسة فجعل الخليفة يسأله عن كل من يمر . حتى أقبلت جارية لم يرمق أحسن منها وبيدها مجمرة تبخر ،فسأله عنها فقال :هي ابنتي، قال:ماسمها؟ قال: شعانين ، فقال لها المتوكل :ياشعانين اسقيني ماء .فقالت: ياسيدي ،ليس هنا إلآ ماء الغدران ، وأنالا أستنظفه لك ،ولو كانت حياتي ترويك لجدت بها ،وأسرعت بكوز فضة فأومأت إلي أن اشربه فشربته:

ثم قال لها :إن هويتك تساعديني ؟

فقالت :أنا الآن بإمرتك ، وأما إذا صدق الحب في المحبة فما أخوفني من الطغيان . أما سمعت قول الشاعر :

١ – كنت لي في أوائل الأمر حباً
ثم لما ملكت صرت عدوا
٢ – أين ذاك السرور عند التلاقي ؟
صار مني تجنبا ونبوا

فطرب حتى كاد يشق ثوبه ،ثم قال لها :هبيني نفسك اليوم،فصعدت به إلى غرفة مشرفة على الكنائس ،وجاء الراهب بخمر لم ير مثله، فلما أخذ منه الشراب أحضرت آلة وغنت :

١ – ياخاطباً مني المودة مرحبا
روحي فداؤك لاعدمتك خاطبا

---

(١) الحب بكسر الحاء المحب.
(٢) النبو: الجفوة.

٢ - أنا عبدة لهواك فاشرب واسقني
واعدل بكأس عن جليسك إذ أبى
٣ - قد والذي رفع السماء ملكتني
وتركت قلبي في هواك معذبا

فأرغبها حينئذ فأسلمت وتزوجها فكانت من (أعز النساء عنده.

المتوكل (*):

والمتوكل (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ)(٨٢١ - ٨٦١ م) هو جعفر بن المعتصم ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق(سنة ٢٣٢) ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق ،فأقام بهذه شهرين ،فلم يطب له مناخها فعاد وأقام في سامراء ،إلى أن اغتيل فيها ليلاً باغراء ابنه (المنتصر).

أمير الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير يتزوج نصرانية إسبانية.

جاء في الأعلام ٤ : ١٥٤ .

عبد العزيز بن موسى بن نصير اللخمي بالولاء: أمير فاتح، ولاه أبوه إمارة الأندلس، عند عودته إلى الشام سنة ٩٥ هـ فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح مدائن. وكان شجاعاً حازماً فاضلاً في أخلاقه وسيرته، ولما سخط سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير بعث إلى الجند يأمرهم بقتل ابنه عبد العزيز، فدخلوا عليه، وهو في المحراب يصلي الصبح فضربوه بالسيوف ضربة واحدة، وأخذوا راسه فأرسلوه إلى سليمان، فعرضه على

(*) من الأعلام ٢: ١٢٢ في اختصار شديد.

أبيه، فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة، وقد قتلتموه والله صواماً قواماً.

قال ابن الأثير: وكانوا يعدونها من زلات سليمان.

أما نفح الطيب للمقَّري فيورد بالتفصيل أنباء فتح الأندلس وكارثة موسى بن نصير وابنه عبد العزيز في الجزء الأول من كتابه، وقال بعد أن تحدث عما ذاقه موسى بن نصير من الأهوال وأنه اضطر إلى التسول في أحياء العرب فيعطونه الدرهم والدرهمين، ثم انتهى إلى القول: ١ : ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ :

فما سفرت تلك الليلة (ليلة ألقى برأس ولده عبد العزيز في حجر) إلا عن قبض روحه - رحمة الله عليه - فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه، وإن فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز - الذي تركه نائباً عنه بالأندلس - وقد جيء به من أقصى المغرب - بين يديه من وصماته التي تعد عليه طول الدهر. لا جرم أن الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه.

ولا نريد أن نفصل في إساءة سليمان (الخليفة) إلى موسى بن نصير فاتح الأندلس وتعذيبه وحبسه وتغريمه غرماً عظيماً حتى اضطره إلى أن سأل العرب معونته. فمن شاء أن يزداد معرفة بذلك فليراجع كتاب نفح الطيب، ولكننا نكتفي بأخبار ولده عبد العزيز .

قال المقَّري: ١ : ٢٨٠ - ٢٨١ .

ودس (سليمان) إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس، وهو عبد العزيز بن موسى، وكان تولى الأندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه إياه فضبط سلطانها، وضم نشرها وسد ثغورها، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقي على أبيه موسى منها.

وكان من خير الولاة، إلا أن مدته لم تطل، لوثوب الجند به وقتلهم إياه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى، لأشياء نقموها عليه منها:

عبد العزيز يتزوج امرأة لذريق ملك إسبانيا

... زعموا تزوجه لزوجة لذريق المكناة أم عاصم، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل نعمتها، إلى أن تزوجها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ويقال إنه سكن بها في كنيسة بأشبيلية، وإنها قالت له: لم لا يسجد لك أهل مملكتك ـ كما كان يسجد للذريق ـ زوجها الأول ـ أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزري بقدره عندها فاتخذ بابا صغيراً قبالة مجلسه يدخل الناس منه فينحنون، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له فرضيت بذلك، فنمي الخبر إلى الجند، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله، فقتلوه ـ سامحه الله تعالى ـ :

تعليق:

والذي يتبين لنا من طلب زوجة عبد العزيز له سجود الداخلين عليه، وهي أذكى من أن تطلب هذا الطلب، وأعرف بعادات العرب، ومن تنفيذ عبد العزيز لرغبتها، وهو ـ الصوام القوام ـ المؤمن أتقى لله من أن يأمر باتخاذ باب ينحني الناس عند الدخول منه، يتبين لنا أن كل ذلك من الأكاذيب رويت لتبرير أوامر سليمان للجند بقتله.

أما الطبري فلا يتحدث عن مقتل عبد العزيز بأكثر من قوله في تاريخه: ٦ : ٥٢٣ .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين... وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن

نصير بالأندلس، وقدم برأسه على سليمان حبيب بن أبي عبيد الفهري.

وهكذا تنتهي حياة هذا الأمير العربي - الذي تزوج إسبانية نصرانية - بالقتل إرضاء لحقد الخليفة سليمان بن عبد الملك، على أبيه موسى بن نصير فاتح الأندلس.

الفصل الخامس

المسلمون وحب الفتيات النصرانيات

حب وقتل وعذاب وجنون

١ – من يسلم إذا أسلمت زوجته الحبيبة ويتنصر إذا تنصرت:

وهذا موقف عجيب يدعو إليه الحب :أن يغير الإنسان دينه حسب دين حبيبته.

ويمثله في الشعر العربي خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان*... فمن هو خالد؟

ورد في الأعلام :

خالد بن يزيد بن معاوية (٠٠٠ – ٩٠ هـ) (٠٠٠ – ٧٠٨ م) ... أبو هاشم حكيم قريش وعالمها... قال ابن النديم : كان خالد بن يزيد فاضلاً

---

* ترجمته: الأعلام ٢ : ٣٤٢ – ٣٤٣ . الفهرست ١: ٥١١ . البيان والتبيين ١: ١٧٨ . الوفيات ١ : ١٦٨ . تهذيب ابن عساكر ٥ : ١١٩ ورغبة الآمل من كتاب الكامل ٤ : ٢٢ .

في نفسه .. له همة ومحبة للعلوم ..خطر بباله حب الصنعة (الكيمياء) فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمصر ،وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ... وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة وقال الجاحظ :خالد بن يزيد خطيب شاعر وفصيح جامع جيد الرأي ،كثير الأدب ...توفي في دمشق.

وأورد ابن النديم قول خالد :

إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد عوضا منها الا ان ابلغ أخر هذه الصناعة (الكيميا) فلا أحوج أحداً عرفني يوما اوعرفته الى ان يقف بباب سلطان رغبة او رهبة (اي حين يكتشف طريقة تحويل النحاس الى ذهب).

٢ ـــ زواج خالد بن يزيد ورملة بنت الزبير:

جاء في شرح المختار من شعر بشار : ١٥٠ - ١٥١ :

ارسل عبد الله بن مروان الى الزبير (بن العوام) يخطب ابنته (رملة) على خالد بن يزيد بن معاوية،فذكروا لها ذلك فقالت :

ـ لاوالله او يطلق نساءه.

فطلق امرأتين كانتا عنده، احداهما من قريش والاخرى من الازد، فتزوجها وظعن بها الى الشام.

وفيها يقول*: ثم اورد المؤ لف خمسة ابيات من القصيدة:

الحجاج ينكر على خالد زواجه برملة

جاء في الاغاني ١٧:٣٤٣؛

(*) الأبيات منها ثلاثة في الأغاني ١٦ : ٤/٨٤ ، ٣ ، ٥ وفي صفحة ٨٦ منه ثمانية أبيات منها ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ وليس فيها الثاني، وفي الأبيات اختلاف كلمات، والبيتان ٣ ، ٤ في الحصري : ٢ : ٩٤ والكامل ١٩٧ .

لما قتل ابن الزبير حج خالد بن يزيد بن معاوية فخطب رملة بنت الزبير بن العوام، فأرسل اليه الحجاج حاجبه عبيد الله بن موهب وقال له ماكنت اراك تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني . وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء وكذلك قال جدك معاوية ، وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ورموه بكل قبيحة وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة.

فنظر إليه خالد طويلاً ثم قال له :

- لولا أنك رسول ،والرسول لايعاقب ،لقطعتك إرباً إرباً ثم طرحتك على باب صاحبك .قل له :ماكنت أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء!

وأما قولك لي :قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح، فإنها قريش يقارع بعضها بعضاً ،فإذا أقر الله عزوجل الحق قراره ،كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم .

وأما قولك : إنهم ليسوا بأكفاء ،فقاتلك الله ياحجاج ،ماأقل علمك بأنساب قريش ؛أيكون العوام كفئاً لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية وبتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد ، ولاتراهم أهلاً لأبي سفيان؟!

فرجع الحاجب إليه فأعلمه .

ومن أخبار خالد

أم خالد تقتل خليفة المسلمين مروان بن الحكم :

وجاء في الأغاني ١٧ :٣٤٥ - ٣٤٦ .

أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية، فناظر خالداً يوما وأراد أن يضع منه في شيء جرى بينهما فقال له:

- يابن الرطبة فقال له خالد : إنك لأمي مختبر وأنت بها أعلم.

ثم إنه أتى أمه فأخبرها فقالت له :دعه ،فإنه لايقولها لك بعد اليوم.

فدخل مروان عليها فقال لها : هل أخبرك خالد بشيء؟
فقالت :
- ياأمير المؤمنين، خالد أشد تعظيماً لك من أن يذكر لي خبراً جرى بينك وبينه.
فلما أمسى وضعت مرفقة (مسندا) على وجهه، وقعدت عليها هي وجواريها حتى مات .
وأراد عبد الملك قتلها وبلغها ذلك ، فقالت : أما إنه أشد عليك أن يعلم الناس أن أباك قتلته امرأة ،فكف عنها .

وهذه هي الأبيات (*):

١ ـــ أليس يزيد الشوق في كل ليلة
وفي كل يوم لي حبيبتنا قربا
٢ - خليلي مامن ساعة تذكرانها
من الدهر إلامطتما عني الكربا
٣ - أحن إلى بنت الزبير وقد علت
بنا العيس خرقاً من تهامة أو نقبا
٤ - أحب بني العوام طراً لحبها
ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

---

(١) في الأغاني:
أليس يزيد السير في كل ليلة وفي كل يوم من أحبتنا قربا
وأوردنا رواية المختار.
(٢) لم يرد في الأغاني وهو من المختار،ماط الكرب: أزاح الحزن.
(٣) لم يرد في المختار وأوردناه من الأغاني. العيس: الابل. الخرق: الفلاة الواسعة. النقب: الطريق في الجبل.
(٤) رملة هي أخت مصعب بن الزبير لأمه (وقيل لأبيه) وفي أنساب الأشراف والبلاذري "أخت مصعب لأبيه وأمه" كانت أمهما أم الرباب ... من كلب. البيت من الأغاني.

٥ – إذا نزلت أرضاًتجيب أهلها
إلينا وإن كانت منازلها حربا
٦ – وإن نزلت ماء ،وإن كان قبلها
مليحا وجدنا ماءه بارداً عذبا
٧ – تجول خلاخيل النساء ولاأرى
لرملة خلخالاً يجول ولاقلبا
٨ – أقلوا علي اللوم فيها فإنني
تخيرتها منهم زبيرية صلبا
٩ – فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري
تخط رجال بين أعينهم صلبا

الاختلاف في البيت التاسع :

ورد في الأغاني ١٧ :٣٤٤ قال : أبو زيد :وزادوا في الأبيات

فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري
تخط رجال بين أعينهم صلبا

فقال له عبد الملك :تنصرت يا خالد. قال: وماذاك ؟ فأنشده هذا البيت، فقال له خالد على من قاله ونحلنيه لعنة الله.

وورد في المختار :١٥٠ – ١٥١:

---

(٦) المليح: المالح ضد العذب، والبيت من الأغاني ولم يرد في المختار.
(٧) القُلب: بضم القاف: سوار المرأة يعني أنها ممتلئة الساقين والساعدين. والبيت من الأغاني والمختار معاً.
(٨) زبيرية قلبا (بفتح القاف) أي خالصة النسب، وهو من الأغاني.
(٩) وروى الشطر الثاني "يعلق رجال فوق أعناقهم صلبا. والصلب: جمع صليب.
(*) الأبيات: ١ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ في الأغاني ١ و ٢ و ٤ و ٧ و ٩ . وفي مصادر أخرى تتفاوت الأبيات عدداً وتختلف الكلمات، ومنها زهر الآداب والكامل.

فذكر أن هذا البيت الأخير (التاسع) مزيد في ابياته ، وأن عبد الملك بن مروان عمله .فلامه عليه فقال : والله ياأمير المؤمنين ماعملته فلعن الله من عمله ،فصمت عبد الملك ولم يعاوده.

ومهما يكن من أمر فإن هذا البيت يدل على إنسان مستعد لتبديل دينه حسب دين حبيبه، وهو على كل حال كان ممايغنى به في مجالس الطرب كما سيرد في الخبر الآتي .

الغناء في شعر خالد:

ورد في الأغاني ٧: ٣٤٠

صوت

تجول خلاخيل النساء ولاأرى
لرملة خلخالا يجول ولاقلبا

أحب بني العوام طراً لحبها
ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فإن تسلمي نسلم وإن تتنصري
تخط رجال بين أعينهم صلبا

عروضه من الطويل ،الشعر لخالد بن يزيد بن معاوية يقوله في زوجته رملة بنت الزبير ، والغناء ليحيى المكي .....

ملاحظة : لقد جعل المغنون من أبيات خالدٌ ، ومن البيت الثالث منها خاصة ،صوتاً من أصوات الغناء.

٢ – حموي يحب نصرانية فيرسم على رأسه صليبا بالنار

وجاء في تزيين الأسواق ١: ٢٥٢ ما يلي :

ويقرب من ذلك ما حكاة الصلاح الصفدي في تاريخه قال :

رأيت بحماة رجلاً وافر الحظ من الخط ، وقد أوثقه المؤيد (ملك حماة) ليكتب عنده ، فكان لايمكنه من الخروج ،فحكي أنه علق نصرانية بشيزر (قلعة أسامة بن منقذ) فكان يكتب إلى المغرب بحماة ثم يذهب إليها فيجلس معها إلى الصباح وأقام على ذلك طويلا.

وقالت له يوما:

– إن أحببتني فاكوِ على رأسك صليبا، ففعل ، وأنا رأيته .

٣ – يهجر زوجته بنت عمه ويحب نصرانية

... حدثني الحسين بن علي بن قدامة مولى بني أمية عن أبيه قال :

خرجت إلى الشام فلما كنت بالشراة(*)، ودنا الليل إذا قصر ،فهويت إليه، فإذا بين بابي القصر امرأة لم أر مثلها قط ، هيئة وجمالاً فسلمت ، فردت ثم قالت : من أنت ؟ قلت : رجل من بني أمية من أهل الحجاز . فقالت : مرحبا ، وحياك الله ، انزل فأنت في أهلك . قلت :ومن أنت؟ عافاك الله. قالت امرأة من قومك . فأمرت لي بمنزل وقرى وبت في خير مبيت ، فلما أصبحت أرسلت إلى تقول : كيف مبيتك ؟ قلت : خير مبيت، والله ما رأيت أكرم منك ، ولاأشرف من فعالك ، قالت : فإن لي إليك حاجة ، تمضي حتى تأتي ذلك الدير ، دير أشارت إليه متنح، فإن فيه ابن عمي، وهو زوجي، قد غلبت عليه نصرانية في ذلك الدير ، فهجرني ولزمها، فتنظر إليه وإليها ، وتخبره عن مبيتك وماقلت لك ، فقلت : أفعل

(*) الشراة: موضع بين دمشق والمدينة.

ونعمى عين (*).

فخرجت حتى انتهيت إلى الدير ، وإذا أنا برجل في فنائه جالس كأجمل مايكون من الرجال ، فسلمت فرد وسألني ،فأخبرته من أنا وأين بت ، وماقالت لي المرأة . فقال :صدقت . أنا رجل من قومك من آل الحارث بن الحكم ، ثم صاح : ياقسط ؛ فخرجت إليه نصرانية عليها ثياب حبر وزنار ، مارأيت مثلها فقال: هذه قسط، وتلك أروى، وأنا الذي أقول :

تبدلت قسطا بعد أروى وحبها
كذاك لعمري الحب يذهب بالحب

مصارع العشاق ١: ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٤ - نصرانية تقتل حبيبها المسلم ثم تندم

ورد في تزيين الأسواق ٢: ٣٧٣ - ٣٧٤ مايلي :

وحكى الشيزري في روضة العشاق عن راهب أسلم ، وكان اسمه عبد المسيح ،قال : سئل عن سبب إسلامه ، فحكى أنه كان عندهم جارية نصرانية تبيع الخبز أحبها شاب مسلم ،واشتد حاله في حبها ، فسلطت عليه الصغار فضربوه ،فلما علمت صدقه عرضت عليه نفسها في الحرام فأبى ، فعرضت عليه التنصر فأبى ، فأمرت الصبيان بضربه حتى مات وهو يقول :

ـــ اللهم اجمع بيننا في الجنة.

فرأته في النوم ،وقد انطلق بها إلى الجنة فمنعت لأجل الإسلام فأسلمت ،ودخل بها فأراها قصراً من اللؤلؤ وقال:

- هذا لي ولك ؛ وستأتين بعد خمس ليال .

(*) ونعمى عين: وكرامة.

فاستيقظت فأسلمت ولزمت قبره حتى ماتت بعد خمس ليال.

٥ – عاشق مسلم وعاشقة نصرانية ، يبدلان دينهما قبل الموت . وإليكم هذا الحب العجيب.

ورد في ديوان الصبابة : ٢٦٠ – ٢٦١ :

حكى أبو الفرج بن الجوزي قال : ذكر لي شيخنا أبو الحسن على بن عبد الله أن رجلاً عشق نصرانية حتى غلب على عقله ، فحمل إلى البيمارستان (مستشفى المجانين) ،وكان له صديق يترسل بينهما فلما زاد به الأمر قال لصديقه : – قد قرب الأجل ولم ألق فلانة في الدنيا وأخشى أن أموت على الإسلام ولاألقاها فتنصر فمات ،فمضى صديقه إلى النصرانية فوجدها عليلة فقالت :أنا مالقيت صاحبي في الدنيا ، وأريد أن ألقاه في الأخرى ،وأنا أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ثم ماتت .

ويعقب ابن أبي حجلةعلى هذه المأساة تعليق فقيه فيقول : قلت : لم أسمع بأغرب من هذه الحكاية ولاأعظم من هذه النهاية ، قد سبق على صاحبها الكتاب وضرب بينه وبين محبوبته بسور له باب ، فابتلي من فراق محبوبته ودينه بداءين ودارت عليه دائرة السوء في الدارين ، وكيف لاوقد ورد بكساده في الحب دار البوار، وأصبح بكفره وإسلامها على شفى جرف هار:

سارت مشرقة وسرت مغربا
شتان بين مشرق ومغرب

٦ – مسلم يعشق نصرانية ويلثم صليبها

وفي تزيين الأسواق في أخبار العشاق ١ :٢٥١ نقرأ مايلي :

... حكي عن ابن العباس بن الفضل (*) أنه عشق نصرانية بدير (سر ماجيس) فكان لايفارق البِيَع (**) شغفاً بها ، فوجدها يوما في بستان فجلست معه اسبوعا ، فقال في ذلك :

١ - رب صهباء من شراب المجوس
قهوة بابلية خندريس

٢ - قد تجليتها بناي وعود
قبل ضرب الشماس بالناقوس

٣ - وغزال مكحل ذي دلال
ساحر الطرف سامري عروس

٤ - قد خلونا بظبيه نجتليه
وسط بستان دير سر ماجيس

٥ - يتثنى في حسن جيد غزال
في صليب مفضض آبنوس

٦ - كم لثمت الصليب في الجيد منها
كهلال مكلل بشموس

وجاء في مختار الأغاني بيتان في عيد الشعانين حسده عليهما محمد ابن عبد الملك الزيات فقال لعبد الله بن العباس:

والله ياأخي لو عرفت ما في شعرك وقولك

(*) العباس بن الفضل (لا المفضل) كما ورد في المطبوعة بن الربيع كما ورد في مصارع العشاق ٢ : ٢٠٥ . وقد عاش في زمن المعتصم، وذكر قصيدته هذه وأخباره في مختار الأغاني ٨ : ١٠٩ ـ ووردت هذه القصيدة أيضاً في معجم البلدان (دير مار سرجيس).
(**) البِيَعَ: جمع بيعة: بكسر الباء: معبد النصارى.
١ ـ خندريس من صفات الخمر، وبابلية من بابل والقهوة : الخمر.
٤ ـ في معجم البلدان (مادة دير) دير سَرجبيس.

١ – يـاشـادنـا رام إذ مـــ
ـر فــي الـشـعـانـين قـتـلـي

٢ – يـقـول لـي : كـيـف أصْبحـ
ـتَ ؟كـيـف يـصـبـح مـثـلـي

لما قلت هذا القول ، والله لو لم يكن لك شعر في عمرك كله إلا قولك كيف يصبح مثلي ؟ لكنت شاعراً مجيداً.

مختار الأغاني ٨: ١١٠

٧ – فيمن أحب نصرانية وتغزل بها ودافع عنها ومدح العيون الزرق.

ورد في عيون الأخبار لابن قتيبة ٤ :٥٨

وقال آخر: (*):

١ . يقولون : نصرانية أم خالد
فقلت : دعوها ، كل نفس ودينها

٢ – فإن تلك نصرانية أم خالد
فقد صورت في صورة لاتشينها

٣ – أحبك أن قالوا : لعينيك زرقة
كـذاك عـتاق الطـير زرقاً عيـونـهـا

ويبدو أن حبيبته كانت ذات عينين زرقاوين.

(*) لم أعرف الشاعر ولم أجد هذه الأبيات في غير هذا الكتاب.
١ ـ يذكرنا هذا البيت بالمثل الشعبي: كل على دينه، الله يعينه.
٢ ـ تشين تعيب: يعني أنها جميلة.
٣ ـ يدافع عن العيون الزرق لأنها في لون عيون النسور والصقور.

٨ – راهبة عفيفة تعظ مسلماً عاصياً فيتوب .

جاء في مصارع العشاق ج ٢: ٢٥٤ .

راهبة لاتشارك في المعصية.

مر رجل براهبة من أجمل النساء فافتتن بها فتلطف في الصعود إليها فأرادها على نفسها فأبت عليه وقالت : لاتغتر بما ترى ،فليس وراءه شيء ، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها مجمرة لُبان فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قالت :إنك لما قهرتني على نفسي خفت أن أشركك في اللذة فأشاركك في المعصية ففعلت ذاك لذلك.

فقال الرجل:

والله لاأعصي الله أبداً.

وتاب مما كان عليه (*).

٩ – نصراني يحب مسلمة فيكره على الإسلام (**) ويصوم صوم المسلمين بعد أن صام صوم النصارى.

جاء في تزيين الأسواق ٢: ٥٣٠ .

...وروي أن نصرانيا وجد مع مسلمة آخر يوم من صومه ،فأكره على

(*) ليس هذا الرجل محباً، ولكنه مسلم فاسق تاب على يدي راهبة عفيفة.

(**) لم أجد غير هذه الحادثة في حب النصارى للمسلمات، وأظن أن هنالك حوادث أخرى لمثل هذا الحب، لم تذكرها كتب الحب عند المسلمين، وأظن كذلك أن هذه الحادثة لا تدل على حب عميق، بل هي حادثة فسق، فقد قال هذا النصراني الذي أكره على الإسلام "تزوجت فاجرة".

الإسلام .فأسلم وضرب مائة سوط وأخذ منه مائة دينار ، وكان أول يوم من رمضان فصام مع الناس فقيل له بعد أيام :

- كيف حالك ؟

فقال : كيف حال من صام خمسين يوماً وأتبعها بثلاثين وضرب مائة (سوط) ووزن (دفع) مائة (دينار) وخرج من ملة إلى أخرى ،وزُوِّج فاجرة.

١٠ - الشاعر ربيعة الرقي (*) يفضل ملاحقة الحبيبة على امتلاكها

ورد في مختار الأغاني لأبن منظور ٥:٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - في ترجمته من ص٢٦٢ - ٢٧٠ مايلي:

كان ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي يلقب بالغاوي ،وكان يهوى جارية يقال لها : عثمة ،أمة لرجل من أهل قرقسيا يقال له: ابن مرار،وكان بنو هاشم في سلطانهم قد ولوه مصر فأصاب بها مالاً عظيماً ، وبلغه خبر ربيعة مع جاريته فأحضره وعرض عليه أن يهبها له ،فقال:

- لاتهبها لي ،فإن كل مبذول مملول ،وأكره أن يذهب حبها من قلبي، ولكن دعني أواصلها هكذا ،فهو أحب إلي ، وقال فيها ومدح بها بعض ولد يزيد بن المهلب:

١ - اعتاد قلبك من حبيبك عيده
شوق عراك فأنت عنه تذوده

(*) ربيعة الرقي كما في الأعلام (٠٠٠٠ ـ ١٩٨هـ) (٠٠٠ ـ ٨١٣ م) شاعر غزل مقدم كان ضريراً... مولده ومنشؤه في الرقة (على الفرات....).

٢ - فالشوق قد غلب الفؤاد فقاده
والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده
٣ - في دار مرار غزال كنيسة
عطر عليه خزوزه و بروده
٤ - ريم أغر كأنه من حسنه
صنم يحج ببيعة معبوده
٥ - عيناه عينا جؤذر بصريمة
وله من الظبي المربب جيده
٦ - ماضر عثمة أن تلم بعاشق
دنف الفؤاد متيم فتعوده
٧ - وتلده من ريقها فلربما
نفع السقيم من السقام لدوده

وفي ص ٢٦٩ - ٢٧٠:

قال أبو بشر : كنت حاضراً ربيعة الرقي يوماً ، وجاءته امرأة من منزل عثمة ، الجارية التي يتعلقها فقالت له :

تقول لك فلانة ،إن بنت مولاي محمومة ، فإن كنت تعرف عوذة لها فافعل ، فقال: - اكتب لها ياأبابشر هذه العوذة :

١ - ثفوا ثفوا باسم إلهي الذي
لايعرض السقم لمن قد شفى

---

(١) الخزوز: ج خز، وهو الحرير.

(٥) الجؤذر: الغزال: الصريمة: القطعة من معظم الرمل. المربب: المعطر.

(٧) تلده اللدود: تسقيه دواءه من رضابها.

(١) لعل هذه الكلمة من العامي الفصيح الذي قلبت ثاؤه تاء فقالوا: تفوا تفوا.

٢ - أعـيـذ مـولاتـي ومـولاتـهـا
وبـنـتـهـا بـعـوذة المـصـطـفـى

٣ - من شر مايعرض من علّة
في الـصـبـح والـلـيـل إذا أسـدفـا

ثفوا ثفوا :هو النفث الذي ينفثه الراقي .

قال أبو بشر :فقلت له : يأأبا شبابة ،لست أحسن أن أكتب :ثفواثفوا فكيف أكتبها؟ قال : - انضح المداد من رأس القلم ، يقع في موضعين ثلاثة، حتى يكون كالنفث ، وادفع العوذة إليها فانها نافعة ، ففعلت ودفعتها إليها .

فلم تلبث أن جاءت الجارية ، وهي لاتتمالك ضحكاً فقالت له :

- يامجنون .مافعلت بنا، كدنا والله أن نفتضح بما صنعت .قال:

- فما أصنع بك ؟ أشاعر أنا أم صاحب تعاويذ ؟

الباب الثاني

الحب الشاذ

تمهيد

جاء في معجم لاروس الكبير :

الشذوذ الجنسي Homosexualité.

حالة الأفراد (من رجال ونساء) الذين لايشعرون بالإثارة الجنسية إلا مع الأفراد الذين هم من جنسهم

ويسمى ذلك عند الرجال : اللواط Uranisme أو Pederastie.

وعند النساء : السحاق Tribadisme.

اللواط: إطفاء الغريزة الجنسية المذكرة بعلاقات جسدية بين أفراد من جنس واحد .

واللواط يمكن أن تكون له عوامل جسدية ، وهذه العوامل دفعت إلى الانقلاب الجنسي ، وتتعدد مصادر هذه العوامل (الخوف من النساء، الرغبة في التفرد، وميول أخرى مختلفة) ويمكن أن يكون اللواط في أحد الشخصين طريقة للارتزاق والكسب أو وسيلة لبلوغ بعض الغايات . ويعتبر اللواط في كثير من البلاد خرقاً للقانون .

فاللواط إذن انقلاب جنسي في الذكور .

والسحاق انقلاب جنسي في الإناث .

هذا وقد انتشر الشذوذ الجنسي في العصور العباسية والعصور المتأخرة انتشاراً واسعا، بين أفراد كل الطبقات في المجتمع ،وأعتقد انه معروف في العالم كله وليس من شأننا البحث في هذا الموضوع ولكننا نشير إليه إشارة عابرة.ونجعله تمهيداً للحديث عن الحب بين المسلمين الذكور والنصارى الذكور .

لقد رأى المسلمون في الأديرة حياة غير حياتهم في مدنهم و محيطاً غير محيطهم فزاروها كثيراً وشربوا الخمر فيها قبل كل شيء وأحبوا بعض الرهبان منها. وتراوح هذا الحب بين الحب العذري القاتل والحب الجسدي العنيف ،وستجد في الباب الثاني نماذج مختلفة من هذين النوعين من الحب

ونجد مع ذلك من ينصف الأديرة ويصف جمال الرهبان ثم يعرج على كبريائهم وتقواهم وتهجدهم وعبادتهم رغم حمرة خدودهم ولين قدودهم

ونحن ،وإن كنا ننكر هذا الحب الشاذ ،فحكمنا عليه حكم قيمة ، ولكن حكم الوجود يقرر أنه موجود ، ويؤسفنا أن بعض القوانين في الغرب بدأت تعتبر زواج الذكر بالذكر أمراً مشروعا تسجله في الأحوال الشخصية. ولنتذكر ذلك الطبيب السوري الذي ذهب إلى أمريكا لحضور عرس ولده. فإذا ولده يأتيه بغلام روجة له وأصيب الطبيب بنوبة كادت تودي بحياته.

ومهما يكن إنكارنا للحب الشاذ ،فإنه يبقى حبا، ولعل فيما قاساه هؤلاءالعشاق من عذاب وشقاء وجنون في حبهم الشاذ مايشفع لهم في حبهم هذا ،ألم يعرف معجم لاروس الكبير الحب بقوله :الحب ميل القلب نحو شخص أو شيء يجذبه إليه ، ولاحظوا أنه قال نحو شخص ولم يعين هذا الشخص ثم أضاف إليه حبَّ الأشياء .

جاء في كتاب ابن الفارض والحب الإلهي تأليف الدكتور محمد مصطفى حلمي ص ٣٥ أن ابن الفارض ، وهو الصوفيّ المشهور سلطان العاشقين :" " قد كلف بغلام جزار له فيه (مواليا) سمعه ابن خلكان من أصحاب ابن الفارض وأثبته في آخر ترجمته له [١] وهو قد رأى ذات مرة جملاً لسقاء فهام به . وصار يأتيه كل يوم ليراه [٢] ، وهو كما زعم بعضهم قد عشق برنية (قارورة) في حانوت عطار [٣] ... " فكان يجلس في السوق عند العطار ليراها ساعات وساعات.

وأضاف صاحب الكتاب ص ٣٦

" ليس مايمنع من أن يكون ابن الفارض من أصحاب هذه النفوس التي خلقت عاشقة بطبعها ، فتجذبه إلى كل جميل بفطرتها ، حتى إنها في حبها لاتكاد تفرق بين إنسان وحيوان وجماد ،وإنما كل مايأخذ شعورها ويملك عليها عاطفتها جميل لديها ، ومن هنا أحب ابن الفارض الجمال في كل صورة بحيث كان الجمال عنده مطلقاً شائعاً ، لايعيّنه رسم ولايقيّده شكل ..."

لاتظنوا في نقل هذا الكلام تسويغاً للحب الشاذ ، ولكنه حكم وجود ، تقرير لأمر واقع شاع في ذلك العهد ،وإخاله مايزال شائعاً في أيامنا هذه .. والزواج بين الذكور المعترف به في بعض أقطار الغرب شاهد على ذلك .

١ - الربعي يصف جمال الرهبان وتقواهم

لم يعدم الرهبان من يصف جمالهم ويشيد بتقواهم وصلاتهم في آن واحد

جاء في شرح المختار من شعر بشار ص ٢٩١

---

(١) وفيات الأعيان: ١ : ٣٨٣

(٢) شذرات الذهب ١ : ١٥٠ - ١٥١

(٣) شذرات الذهب ١ : ١٥١ .

قال أبو الحسن الربعي :

١ - كأن على لباتهم وخدودهم
وذائل ملساً من لجين وعسجد

٢ - ترى كبرياء الحسن في لحظاتهم
يشاب برهبانية المتهجد

٣ - إذا قبلوا صلبانهم رشفت بهم
حصى برد فيه مجاجة صرخد

٢ - يحسد الصليب على قلب الحبيب

قال الخالدي (*) في دير الأعلى (**):

١ - قمر بدير الموصل الأعلى
أنا عبده وهواه لي مولى

٢ - لثم الصليب فقلت من حسد:
قبل الصليب ، فمي بها أولى

٣ - جد لي بإحداهن تحوِ بها
قلباً محبته على المقلى

---

(١) اللبات: ج لبة: موضع القلادة من الصدر. العسجد: الذهب، واللجين، الفضة والوذائل ج وذيلة كسفينة: المرآة والقطعة من الفضة المجلوة...

(٢) يشاب: يختلط. المتهجد: المصلي بالليل.

(٣) مجاجة صرخد: بقية خمر.

(*) الخالدي: هو سعيد بن هاشم (٠٠٠ - ٣٧١ هـ) (٠٠٠ - ٩٨١م) وكان هو وأخوه محمد بن هاشم (٠٠٠ نحو ٣٨٠ هـ) (٠٠٠ نحو ٩٩٠م) شاعرين أديبين من خواص سيف الدولة بن حمدان.

(**) دير الأعلى (في معجم البلدان) بالموصل في اعلاها على جبل مطل على دجلة، يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف...

(٣) قلبا محبته على المقلى: يعني أنه يحترق.

٤ - فاحمر من خجل ، وكم قطفت
عيني شقائق وجنة خجلي
٥ - وثكلت صبري عند فرقته
فعرفت كيف مصيبة الثكلى
معجم البلدان (دير الأعلى)

٣ - السراج البغدادي (صاحب كتاب مصارع العشاق) يعشق نصرانياً.

قال السراج البغدادي في كتابه مصارع العشاق ٢: ١٦٩ يعترف :

ولي من جملة قصيدة عملتها بتنيس ، وأنا أستغفر الله وأستقيله .

١ . وبتنيس في كنيسة ديرين
لحيني أبصرت ظبياً أغنا
٢ - واقفاً يلثم الصليب وطورا
بأناجيله يرجع لحنا
٣ - فتمنيت أن أكون صليبا
يوم قربانه فاقرع سنا

٤ - السراج يتمسك بدينه رغم حبه لراهب.

قال البغدادي مصارع العشاق ٢: ٢٥٥ .

١ ـ تنيس: ورد في معجم البلدان، بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين المهملة: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرَما ودمياط، ويبدو أن لها تاريخاً فقد قال ياقوت: قال صاحب تاريخ تنيس.
٢ ـ فأقرع سناً: عندما يقبل الحبيب الصليب.

١ - وشادن من بني الرهبان تاركني
حبي ،وقد شاع بين الناس واشتهرا
٢ - وقال :لو كنت صبا لاقتديت بمن
تهواه في لبسه الزنار والشعرا
٣ - فقلت : لست بديني طالباً بدلاً
ولو أذاب غرامي أعظمي وبرى
٤ - وكان ذلك منه أصل سلوته
والعزم في الأمر مما يعقب الظفرا

٥ - أبو نواس والنصارى

لولا خوفه لعبد مكان الله عيسى بن مريم

تمهيد :

حوادث أبي نواس مع النصارى كثيرة ، فيها صداقة وفيها مجون وفيها لهو وسكر ،وسأقتصر على بعض هذه الحوادث ، ومن أراد الزيادة فعليه بديوان أبي نواس .

الشعر:

جاء في مختار الأغاني ٤: ٢٧٧ في قصة طويلة جرت بين هارون الرشيد وجلسائه .. نأخذ منها ما يتعلق بعلاقة أبي نواس بالنصارى وشعره فيهم :

... قال رجل من جلساء الرشيد ، إن أذن أمير المؤمنين أسمعته من قول هذا الفاسق (أبي نواس) ماهو أشنع مما سمع قال: هات قال: قوله في غلام نصراني :

١ - تمر فأستحييك أن أتكلما
ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
٢ - ويهتز في ثوبيك كل عشية
قضيب من الريحان شب منعما
٣ - بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى
وأن جفوني فيك قد ذرفت دما
٤ - أليس عظيماً عند كل موحد
غزال مسيحي يعذب مسلما ؟
٥ - فلولا دخول النار بعد بصيرة
عبدت مكان الله عيسى بن مريما

فازداد قلق الرشيد عليه فقال : ياأمير المؤمنين ، وأشنع من ذلك؛ قال : هات فأنشده في غلام نصراني:

١ - وملحة بالعذل ذات نصيحة
ترجو إنابة ذي مجون مارق
٢ - بكرت تبصرني الرشاد وهمتي
غير الرشاد ومذهبي وخلائقي
٣ - فأجبتها : كفي ملامك إنني
مختار دين أقسة وجثالق
٤ - والله لولا أنني متخوف
أن أبتلى ....

وقطع الإنشاد ،فقال الرشيد : بماذا ويلك ؟ فاستعفاه ، فقال:ويلك

---

١ ـ إنابة: توبة.
٣ ـ جثالق ج جاثليق: من رؤساء النصارى.

بماذا؟ فقال: بإمام جور فاسق (تتمة البيت الرابع).

قال : فضاق المجلس بأهله ،وأنكر الرشيد نفسه ثم قال : امض فيها فقال:

٥ - لتبعته في دينه ودخلته
ببصيرة مني دخول الوامق
٦ - إني لأعلم أن ربي لم يكن
ليخصهم إلا بدين صادق

إن أبا نواس يريد أن يتنصر ويرى أن دين النصارى حق وصدق .

فقال الرشيد للفضل :برئت من المنصور إن لم يبت هذا الكلب في المطبق (*) لتنكره قولاً وفعلا، فوجه الفضل من ساعته ، فأخذ بأفواه السكك،(**) فوجد فأودع المطبق ، وأعانه الفضل بن الربيع إلى أن أطلق.

ولأبي نواس قصائد كثيرة في النصارى منها عشر قصائد في كتاب (الفكاهة والإيناس في مجون أبي نواس) ص ٨٠ - ٨١ / ٨١ - ٨٢ / ٨٢ - ٨٣ / ٨٣ / ٨٣ - ٨٤ / ٨٤ / ٨٤ - ٨٥ / ٨٥/

ولكن هذه القصائد يغلب عليها المجون أكثر من عاطفة الحب، وقد أشرت إلى موقعها في الكتاب ، وآثرت تركها ، مع الإشارة إلى أن حظ هذا الكتاب من الإثارة والإطراف أكثر من حظه من التدقيق والتحقيق .

٦ - ديك الجن الحمصي والشماس (***).

قال ديك الجن الحمصي يتغزل بشماس قدم له الخمر :

(*) المطبق: سجن رهيب للعباسين في بغداد.
(**) أخذ بأفواه السكك: في لغة العصر الحديث: منع التجول وقطع الطرقات.
(***) ديوان ديك الجن (الحجي) ص: ١١٩ وانظر التخريج .

١ - غاد المدام بحث الكاس والطاس
من كف ذي هيف كالغصن مياس

٢ - لاشيء أحسن من راح مشعشعة
حمصية سيما من كف شماس

٣ - إذا اغتدى لزبور الكتب يدرسها
ألهى قلوب الورى عن كل مدراس

٤ - هذا فعالي بطراق الهموم إذا
غدا يخالطها فكري ووسواسي

٧ - يلومه فإذا رأى حبيبه عذره

حكى ابن وكيع أنه كان يهوى غلاماً نصرانيا بتنيس فلامه بعض أصحابه عليه ،ولم يكن رآه ،فاتفق أن الغلام مر بهما فلما رآه صاحب ابن وكيع استحسنه وقال :لو عشقت هذا ما لمتك ،ولم يعلم أنه محبوبه الذي لامه عليه ، فقال ابن وكيع في الحال :

١ - أبصره عاذلي عليه
ولم يكن قبلها رآه

٢ - فقال لي : لو عشقت هذا
ما لامك الناس في هواه

٣ - قل لي :إلى من عدلت عنه ؟
فليس أهل الهوى سواه

---

١ ـ ووردت ديرية أي من الدير بدل حمصية.

٤ - فظل من حيث ليس يدري
يأمر بالحب من نهاه
ديوان الصبابة :١٣٥
تزيين الأسواق :١:٤٢٦

٨ - حب قاتل بين مسلم ونصراني

جاء في تزيين الأسواق ص ٣٥٤ - ٣٥٥ في باب (النوع الثاني في ذكر من جهل حاله ،وكان إلى الموت في الحب مآله ، وقد رأينا أن نبدأ منهم بعشاق النصارى تبعاً للقصة المشهورة)؛ووردت قصةسعيد الوراق هذه في معجم الأدباء ٤: ١١٦ - ١٢٢

فمنهم سعيد الوراق ، وكان بالرها ، يجلس إليه الشعراء وأهل الأدب فيتحدثون عنده في الشعر كالصنوبري والمعري (*)وغيرهما . فلازمهم غلام نصراني اسمه عيسى يكتب ماعندهم من الأدب فعلقه سعيد وزاد به وجده فأنشد يوماً :

١ - اجعل فؤادي دواة والمداد دمي
وهاك فابر عظامي موضع القلم
٢ - وصير اللوح وجهي وامحه بيد
فإن ذلك لي برء من السقم
٣ - ترى المعلم لايدري بمن كلفي
وأنت أشهر في الصبيان من علم

(*) الخلط كثير ويا للأسف في هذا الكتاب، فقد توفي الصنوبري عام ٣٣٤ هـ وولد المعري عام ٣٦٣ أي أن الصنوبري توفي قبل ولادة المعري فكيف يجتمعان؟ ولعل المعري تصحيف "المعوج الشامي كما ورد في معجم الأدباء ٤: ١١٦ ...

ثم اشتهر أمرهما ،فلما شب الغلام طلب الترهب فأجابه أهله بعد جهد (فمضى) إلى دير زكي (*) ، وأقام به ، وكان سعيد يأتيه ويجلس معه فكره الرهبان ذلك وتوعدوا الغلام بالخروج من الدير فمنعه ،أي صارت الرهبان تغلق باب الدير في وجه سعيد إذا اتى.

فلما أيس مضى فأحرق داره وثيابه وخرج عاريا ينشد الأشعار بالدير ويبيت في ظله و أن الصنوبري أتاه يوماً وقد طال شعره وتشوهت خلقته فعنفه ،فقال : ياأبا بكر ؛ ألاترى الى هذا الطائر الذي على شرفة الدير ،قلت : نعم .قال لي : سألته حمل رسالتي إلى عيسى فأبى . ثم قال لي :هل عندك لوح ؟قلت نعم ،فدفعته إليه فكتب :

١ - بدينك ياحمامة دير زكي
وبالإنجيل عندك والصليب

٢ - قفي وتحملي مني سلاما
إلى قمر على غصن رطيب

٣ - عليه مسوحه وأضاء فيها
وكان البدر في حلل المغيب

٤ - حماه جماعة الرهبان عني
فقلبي مايقرمن الوجيب

٥ - وقالوا رابنا إلمام سعد
ولاوالله ما أنا بالمريب

٦ - وقولي ،سعدُكِ المسكينُ يشكو
لهيبَ جوى أحرّ من اللهيب

(*) في المطبوعة دير زنكي والصحيح دير زكي جاء في معجم البلدان: دير زكي بفتح أوله وتشديد الكاف مقصور هو دير بالرها، وهو المقصود، وأضاف ياقوت: ودير زكي قرية بغوطة دمشق معروفة.

والحق أن المطبوعة غير محققة وفيها خلط كثير، ويجب تحقيقها تحقيقاً علمياً جديداً .

٧ - فصله بنظرة لك من بعيد
إذا ماكنت تمنع من قريب
٨ - وإن أك مت فاكتب حول قبري :
محب مات من هجر الحبيب
٩ - رقيب واحد تنغيص عيش
فكيف بمن له ألفا رقيب ؟

ولم يزل كذلك حتى وجد عند الدير ميتاً....... وصار الغلام إذا دخل المدينة لزيارة أهله تضربه الصبيان بالأحجار ويقولون له : ياقاتل سعيد ،فانتقل الى دير سمعان .

ملاحظة:

وقصة هذا الحب رواها ياقوت في معجم الأدباء ٤: ١١٦ - ١٣٢ في ترجمة أحمد بن كليب النحوي ،ولاتخرج عن رواية تزيين الأسواق .وورد فيه:

فمما عمل فيه (في عيسى) ،وهو في الدير ،وكان الغلام قد عمل شماساً:

١ - ياجمة قد علت غصنا من البان
كأن أطرافها أطراف ريحان
٢ - قد قايسوا الشمس بالشماس فاعترفوا
بأنما الشمس والشماس سيان
٣ - فقل لعيسى بعيسى كم هراق دما
إنسان عينك من عين لإنسان

٩ ـ ومسلم آخر يعشق نصرانيا فيجن ويهيم على وجهه.

وجاء في تزيين الأسواق ١ :٣٥٥:

ومنهم (شرف العلاء) علق غلاماً نصرانياً ،فلبس المسوح لأجله وتبعه إلى الكنائس والبيع، وهام به ،فبلغ ذلك الظاهر بن أيوب(*) فاستحضره،فلما دخل عليه تلقاه بقدح من خمر فشربه وأنشد :

جمعت بالكاس شملي
الله يجمع شملك

بحق رأسك دعني
حتى أقبل نعلك

وصار على ذلك هائماً حتى مات

وذكر الحادثة نفسها ابن أبي حجلة بعد الأنطاكي في شيء من التفصيل والخلاف، قال :

وذكر الوداعي القصة نفسها فقال :

ومنهم شهيد حكى شهاب الدين أحمد العقيلي أن (شرف العلا) هوي غلاما نصرانياً وتهتك فيه حتى لبس المسح وتزيا بزي الرهبان، وكان يتبع الغلام حيث توجه، فاتفق أن الملك الظاهر بن صلاح الدين سمع بحاله ، فبينما هو يتصيد في نواحي حلب قيل له إن شرف العلا في هذه الأرض فأرسل إليه من يحضره على هيئته ، فلما حضر وكان السلطان في مجلس

(*) الظاهر الأيوبي هو غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي وجاءت ترجمته في الأعلام ٤ : ٣٠٢ تحدد حياته (٥٦٨ ـ ٦١٣ هـ) (١١٧٣ ـ ١٢١٦م) ويبدو أن هذا العاشق عاش في القرن السادس الهجري.

الشراب قال لبعض ندمائه : املأ قدحاً كبيرا والق شرف العلا به ،فلما رأى القدح أخذه بيده وشربه وأنشد في الحال يخاطب الملك الظاهر :

جـمـعـت بـالـكـأس شـمـلـي
فـالـلـه يـجـمـع شـمـلـك
بـحـق رأسـك دعـنـي
حـتـى أقـبـل نـعـلـك

١٠ – مسلم يرثي حبيبه النصراني

ورد في ديوان الصبابة :٢٦١ :

ذكرت بهذه الحكاية (حكاية العاشقين اللذين بدلا دينهما قبل الموت).

قول عبد الوهاب الأزدي يرثي حبيبا له نصرانيا و أحسن ماشاء حيث قال :

١ – أخي بوداد لاأخي بديانة
ورب أخ في الود مثل نسيب
٢ – وقالوا :أتبكي اليوم من ليس صاحبا
غداً؟ إن هذا فعل غير لبيب
٣ – فقلت لهم :هذا أوان تلهفي
وشدة إعوالي وفرط نحيبي
٤ – ومن أين لي أبكي حبيباً فقدته
إذا خاب منه في المعاد نصيبي؟

وكان هذا النصراني موسوماً بالجمال، خماراً فعلقه عبد الوهاب المذكور واشتهر به وأقام ببابته في الحانة ثلاث سنين، ويدخل معه الكنيسة في الأعياد والحدود طول هذه المدة، حتى حفظ كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله.

وهجره حبيبه مرة فلم يجد سبيلاً إليه، وزعم أن عليه قسماً شديدا أن لايكلمه إلي مدة شهر، فلما يئس دعا بالفاصد فافتصد في إحدى يديه، ودعا فاصداً آخر فافتصد في اليد الأخرى ودخل داره وأغلق باب بيته وفجر الفصادين فما شعر أهله إلا والدم يدفع من سدة باب المحل الذي هو فيه، فأدركوه وقد أشرف على الموت ، فصالحه محبوبه النصراني خوفاً على نفسه .ويبدو أن محبوبه مات قبله فرثاه بالأبيات السابقة ومن شعره فيه.

١ -أنظر إلى الشامة في خد من
أحاظه بالـلـحـظ جـراحـه

٢ – كأنها من حسنها إذ بدت
حـبـة مـسـك فـوق تـفـاحـه

الباب الثالث (٭)

حب عجيب وقصيدة أعجب

(٭) آثرت أفراد هذا العاشق المذهل وقصيدته العجيبة، وأخباره مع حبيبه، بباب مستقل، وسترى أنه يستحق ذلك.

مدرك الشيباني وحبيبه عمرو.

وردت قصة هذا الحب في أربعة كتب:

١ - مصارع العشاق للسراج البغدادي ١: ١٣٨/ ٢٤٢ - ٢٤٣ / ١٦٨:٢/ ١٧٠ - ١٧٥/ ٢٥٨ - ٢٥٩/.

٢ - ديوان الصبابة لابن أبي حجلة :٢٦٢ - ٢٦٦

٣ - معجم الأدباء لياقوت ٤:١٢٢ - ١٢٦

٤ - تزيين الأسواق للأنطاكي :٣٤١ - ٣٥٣

وتتفق الروايات الأربع ولعل بعضها يأخذ من بعض، وقد جمعت بينها وأخذت مانقص في إحداها عن الأخرى .

أما مدرك العاشق فهو مدرك بن محمد وقيل علي الشيباني، نسبة إلى بني شيبان . عرب ببادية البصرة، دخل بغداد صغيراً ونشأ بها، فتفقه وأحسن العربية والأدب والخط ، وكان كثيراً ما يلم بدير الروم من الجانب الشرقي ببغداد، وكان في دير الروم غلام من أولاد النصارى يقال له عمرو بن يحيى (يوحنا) وكان من أحسن الناس صورة وأكملهم خلقاً، وكان مدرك بن محمد يهواه.

كان لمدرك مجلس علم لايحضره إلا الأحداث، وكان إذا دخله شيخ أو صاحب لحية يخرجه ويقول له مدرك:

- قبيح بك أن تختلط بالأحداث والصبيان ،فقم في حفظ الله .

فيقوم.

وكان عمرو يحضر مجلس مدرك فعشقه وهام به، فجاء عمرو يوماً إلى المجلس، فكتب مدرك رقعة وطرحها في حجره فقرأها فإذا فيها:

١ – بمجالس العلم التي
بك تم حسن جموعها

٢ – إلا رثيت لمقلة
غرقت بماء دموعها

٣ – بيني وبينك حرمة
الله في تضييعها

فقرأ عمرو الأبيات، ووقف عليها من كان في المجلس وقرؤوها، فاستحيا عمرو وانقطع عن الحضور، وغلب الأمر على مدرك فترك مجلسه، ولزم دير الروم وجعل يتبع عمراً حيث شاء، وقال فيه شعراً كثيراً. وزاد به الوسواس حتى اختلط عقله ولزم الفراش ودخل الناس عليه يعودونه .

قال: حسان بن محمد بن عيسى فحضرته مع جماعة من أصحابه فقال:

– أما بينكم وبيني حرمة وعشرة ؟ ألست صاحبكم القديم ؟ أما فيكم من يرحمني بالنظر إلى عمرو ؟

فمضينا بأجمعنا إلى عمرو وقلنا له:

– إن كان قتل هذا الرجل ديناً، فإن إحياءه مروءة.

قال: وما فعل ؟

قلنا:

– قد صار إلى حال ما نحسبك تلحقه .

قال : فمضى ولبس ثيابه ، ثم نهض معنا . فلما دخلنا عليه وسلم عليه عمرو أخذ بيده فقال عمرو:

- كيف تجدك ياسيدي ؟

فنظر إليه ثم أغمي عليه وهو يقول :

١ - أنا في عافية إلا
من الشوق إليكا

٢ - أيها العائد مابي
منك لايخفى عليكا

٣ - لاتعد جسما وعد قلـ
ـبا رهينا في يديكا

٤ - كيف لايهلك مرشو
ق بسهمي مقلتيكا

ثم شهق شهقة فارق فيها الدنيا فما برحنا حتى دفناه

- رحمه الله تعالى - .

قال الحريري : وقد رأيت عمراً أبيض الرأس واللحية .

القصيدة العجيبة

١ - جاء في مصارع العشاق للسراج البغدادي :

... حدثنا القاضي أبو الفرج المعافى قال:

أنشدنا أبو القاسم مدرك بن محمد الشيباني لنفسه في عمرو النصراني ... وأورد القصيدة في (١٠٠) بيت .

٢ - أما ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة فقال :

ومن شعر مدرك هذه القصيدة الغريبة العجيبة وأوردها في (٩٢)بيتا.

٣ - وقال الأنطاكي في تزيين الأسواق :

ومن أشعاره المشهورة قصيدته المعروفة بالمزدوجة، وللطفها بتخميس الحلي لها أوردناه معها، غير أن المصنف أبدل أبياتاً يسيرة من التخميس، وزاد أبياتاً أخرى زعم أن الحلي لم يقف عليها .

ثم أورد الإنطاكي القصيدة وتقع في (١٠٠) بيت ، كما يقع التخميس في ٥٠ شطراً.

وأخذت أحسن الروايات للأبيات، واعتمدت في الدرجة الأولى على رواية مدرك نفسه لشعره .

واورد معجم البلدان بعض شعر مدرك (دير الروم)(*) فقال:

(*) دير الروم في معجم البلدان هو بيعة كبيرة حسنة البناء... وهي ببغداد في الجانب الشرقي منها.

ولمدرك بن علي الشيباني ، وكان يطرق هذه البيعة في الآحاد والأعياد للنظر إلى ما فيها من المردان والوجوه الحسان من الشمامسة والرهبان في خلق ممن يقصد هذا الموضع لهذا الشأن فقال :

١ – وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي
فأصبحت في خبل شديد من الخبل
٢ – فكم من غزال قد سبى العقل لحظه
ومن ظبية رامت بألحاظها قتلي
٣ – وكم قُدَّ من قلب بقَد وكم بكت
عيون لما تلقى من الأعين النجل
٤ – بدور و أغصان غنينا بحسنها
عن البدر في الإشراق، والغصن في الشكل
٥ – فلم تر عيني منظراً قط مثلهم
ولم تر عين مستهاماً بهم مثلي
٦ – إذا رمت أن أسلو أبى الشوق والهوى
كذاك الهوى يغري المحب ولايسلي

وقال أيضاً:

١ – ريم بدير الروم رام قتلي
بمقلة كحلاء لامن كحلِ
٢ – وطرةٍ بها استطار عقلي
وحسن دَلٍّ وقبيحِ فعل

١ قُد الأولى (بضم القاف) فعل معناه قُطع، والقد الثانية (بفتح القاف) القوام.

قصيدة مزدوجة أخرى في النصارى وشرائعهم وأعيادهم.

ورد في مختار الأغاني لابن منظور ٢١٤:٢ في ترجمة الشاعر "بكر بن خارجة " :

وكان بكر بن خارجة يتعشق غلاما نصرانيا يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفي، وله قصيدة مزدوجة يذكر فيها أعياد النصارى وشرائعهم وأعيادهم ويسمي دياراتهم ، ومن شعره فيه.

١ - وشادن قلبي به معمود
شيمته الهجران والصدود

٢ - زناره في خصره معقود
كأنه من كبدي مقدود

قال دعبل : ما يعلم الله أني حسدت احداً قط كما حسدت بكراً على هذين البيتين .

****

وهاهي ذي القصيدة كما وردت في مصارع العشاق ٢: ١٧٠ - ١٧٥ . وقد آثرت أن أوردها كاملة، كما وردت في المصارع وأن أستغني عن تخميسها كما ورد في تزيين الأسواق، فمن شاء أن يقرأ التخميس رجع إلى كتاب "تزيين الأسواق" : ٣٤٢ - ٣٤٨ وإلى تفسير مصطلحات النصرانية الواردة في القصيدة : ٣٤٩ - ٣٥٣ .

مدرك الشيباني وعمرو النصراني

أخبرنا أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي ، رحمه الله، سنة ثلاث و أربعين واربعمائة، حدثنا القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري قال: أنشدنا أبو القاسم مُدرك بن محمد الشيباني لنفسه في عمرو النصرائي قال القاضي أبو الفرج: وقد رأيت عمراً، وبقي حتى ابيض رأسه :

مِن عاشقٍ ناءٍ هواهُ دانِ،
ناطقِ دمعٍ صامتِ اللّسانِ
مؤثقٍ قلبٍ مطلقِ الجثمان،
مُعذبٍ بالصَّدِّ والهجرانِ
مِن غيرِ ذَنبٍ كسبَت يداهُ،
غيرَ هوىً نمت بهِ عيناهُ
شوقاً إلى رؤيةِ مَن أشقاهُ،
كأنما عافاهُ مَن أضناهُ
ياوَيحَهُ مِن عاشقٍ مَا يلقى،
مِن أدمُعٍ مُنهَلةٍ مَا ترقا
نَاطقةٍ وَمَا أحارَت نُطقَا،
تُخبِرُ عَن حُبٍ لَهُ استرقا (١)
لم يبقَ مِنهُ غيرُ طَرفٍ يبكي،
بأدمُعٍ مِثلِ نظامِ السِّلكِ
تُطفيهِ نيرانُ الهوى وتُذكي،
كأنّها قَطرَ السماءِ تحكي
إلى غزالٍ مِن بَني النصارى،
عِذارُ خدّيهِ سبَى العَذارى
وغادرَ الأُسدَ بهِ حَيارى،
في رِبقَةِ الحُبِّ لَهُ أسارى
رئمٍ بدارِ الرّومِ رامَ قَتلي،
بمُقلةٍ كَحلاءَ لاعَن كُحلِ

---

١ ـ استرق: أي جعل الناس أرقاء.

وطـرّةٍ بـهـا اسـتـطـارَ عـقـلـي،
وحُـسْـنِ وجـهٍ وقَـبـيـحِ فِـعـلِ
رئـمٍ بـه أيّ هِـزَبـرٍ لَـم يـصـد،
يَقـتـل بـاللّـحظِ ولا يـخشَى القـود
متى يقل : ها! قالتِ الألحاظُ: قد،
كَـأنّـهُ نـاسُـوتـهُ حـيـن اتّحـد
مـا أبـصـر الـنـاسُ جـمـيـعـاً بَـدرا،
وَلا رأوا شَـمـسـاً، وغُـصـنـاً نـضـرا
أحسَنَ مِن عمرو، فدَيتُ عمرا !
ظـبـيٌ بـعـيـنـيـهِ سـقـانـي الخـمـرا
هَـا أنـا ذا بِـسَـقّـدِهِ مَـسـقـدُودُ،
والـدمـعُ فـي خَـدّي لَـهُ أخـدودُ
مَا ضـرّ من فـقـدي بـه موجودُ،
لـو لـم يُـقَـبـح فِـعـلـهُ الـصـدودُ
إن كـان ديـنـي عِـنـدهُ الإسـلامُ
فَـقَـد سَـعَـت فـي نَـقـضِـهِ الآثـامُ
واخـتـلّـتِ الـصـلاة والـصـيـامُ،
وَجَـازَ فـي الـديـنِ لَـهُ الحَرامُ
يـالـيـتـني كُـنـت لـه صَـلـيـبـا،
أكُـونُ مِـنـهُ أبَـداً قـريـبـا
أبـصِـرُ حُـسـنـاً وَ أشـمّ طـيـبـا،
لا واشـيـاً أخـشـى ، وَلا رقِـيـبـا
بـل لـيـتـني كُـنـتُ لَـهُ قُـربـانَـا
ألـثـمُ مِـنـهُ الـثـغـرَ وَ الـبـنـانـاَ

أو جاثليقاً كُنتُ أو مُطرانا،
كَيما يَرَى الطاعةَ لي إيمانا[1]
بَل ليتَني كنتُ لعمرٍو مُصحفًا
يقرأ مني كُلّ يَومٍ أحرفَا
أو قلماً يَكتُبُ بي مَا ألفَا
مِن أدَبٍ مُستَحسَنٍ قدَ صُنفا
بَل ليتَني كنتُ لعمرٍو عُوذَه،
أو حُلةً يَلْبسُها مَقذوذه[2]
أو بركةً بإسمِه مَأخوذَه،
أو بيعَةً في دارِه مَنبُوذَه
بَل لَيتَني كُنتُ لَهُ زنّارَا
يُديرني في الخَصرِكَيفَ دارَا
حَتى إذا اللّيلُ طَوَى النّهارَا،
صِرتُ لَهُ حينئذٍ إزارَا
قَدْ، وَالّذي يُبقِيهِ لي، أفناني،
وَابتزّ عقلي، وَالضّنى كَسَاني
ظَبي عَلى البُعَادِ وَالتّداني،
حَلّ مَحلّ الرّوحِ مِن جُثمَاني
وَاكَبِدي مِن خَدّهِ المُضَرَّجِ،
وَاكَبِدي مِن ثَغرِهِ المُفَلَّجِ
لاشيءَ مثلُ الطّرفِ منهُ الأدعجِ،
أذهَبُ للنّسكِ وَ للتّحرّجِ

---

١ ـ الجاثليق: متقدم الأساقفة.
٢ ـ العوذة: ما يعلق على الأولاد وقاية لهم من العين. مقذوذة: مقطوعة، مقدودة.

إليكَ أشكُو يا غَزالَ الإنسِ،
مَا بي من الوَحشَةِ بَعد الأُنسِ

يَا مَن هِلالي وَجهُهُ وَ شَمسي،
لاتُقتَلِ النّفسَ، بغَيرِنَفسِ

جُد لي كَما جُدتَ بحُسنِ الوُدّ،
وارعَ كمَا أرعَى قَديمَ العَهدِ

وَاصدُد كصَدي عن طويلِ الصّدّ،
فَلَيسَ وَجدٌ بكَ مِثلَ وَجدي

هَا أنا في بَحرِ الهَوى غَريقُ،
سَكرَانُ مِن حُبكَ لاأفِيقُ
مُحترِقٌ، مَا مَسني حَريقُ،
يَرثي لي العَدو وَالصّديقُ
فَلَيتَ شعري فيكَ! هَل تَرثي لي
مِن سَقَمٍ بي وَضَنى طَويلِ
أم هَل إلى وَصلِكَ من سَبيلِ ،
لِعَاشِقٍ ذي جَسَدٍ نَحِيلِ!
في كلّ عُضوٍ مِنهُ سُقم وَألَم،
وَمُقلَةٌ تَبكي بدَمعٍ وَبِدَم
شوقاً إلى بَدرٍ وَشَمسٍ وَصَنَم ،
مِنهُ إليهِ المُشتَكى ، إذا ظَلَم
أقُولُ إذ قَامَ بقَلبي وَقَعَد:
ياعمرو، يا عَامرَ قَلبي بالكَمَدْ

أُقسِمُ باللهِ يَمِينَ المُجتهِدِ،
إنّ امرأً أسعَدتَهُ لَقَد سَعِد
يا عمروا! ناشَدتُكَ بالمَسِيحِ،
ألا استَمَعتَ القَولَ من فَصِيحِ
يُخبِرُ عَن قَلبٍ لَهُ جَريحِ،
بَاحَ بِمَا يَلقَى مِنَ التبريحِ
يا عمرو ! بالحَقِّ مِن اللاهُوتِ،
وَالرّوحِ رُوحِ القُدسِ وَالنّاسوتِ
ذَاكَ الذِي في مَهدِهِ المَنحُوتِ،
عُوّضَ بالنّطقِ مِنَ السّكُوتِ
بحَقّ ناسُوتٍ بِبطنِ مَريَمِ،
حَلّ مَحَلَّ الرّيقِ مِنهَا في الفَمِ
ثمّ استَحَالَ في قَنُومِ الأقدمِ،
فَكَلّمَ النّاسَ، وَلما يُفطَمِ
بحَقّ مَن بَعدَ المَمَاتِ قُمّصَا
ثَوباً على مِقدَارِه مَا قُصّصَا
و كانَ للهِ تَقيّاً مُخلِصَا،
يَشفي ويَبْرِي أكْمَهاً و أبرَصَا[1]
بحقّ مُحيِي صُورَةِ الطّيُورِ،
وَبَاعِثِ المَوْتَى مِنَ القُبُورِ
وَمَن إليهِ مَرجِعُ الأمُورِ،
يَعلَمُ مَا في البَرّ وَالبُحُورِ

---

١ ـ الأكمه: الأعمى.

بحَقّ مَا في شَامخ الصّوَامِعِ،
مِن سَاجِدٍ لربهِ وَرَاكِعِ
يَبكي إذَا مَا نامَ كُلُّ هَاجِعِ
خَوفاً إلى اللهِ بِدَمعٍ هَامِعِ

بحَقّ قَومٍ حَلَقُوا الرّؤوسَا،
وعَالجُوا طُولَ الحَيَاةِ بُوسَا
وقَرَعُوا في البيعَةِ النّاقُوسَا،
مُشمعِلينَ يَعبُدُونَ عِيسَى [1]

بحَقّ مارت مَريَمٍ وَبُولُسٍ،
بحَقّ شِمعُون الصّفَا وَ بطرُسٍ
بحَقّ دَانِيل بحَقّ يُونُسٍ،
بحَقّ حَزقِيلَ وَبَيتِ المَقدِسِ

ونينَوَى، إذقَامَ يَدعُو رَبّهُ،
مُطَهّراً مِن كُلّ سُوءٍ قَلبَهُ [2]
ومُستَقيلاً، فَأقَالَ ذَنبَهُ،
ونَالَ مِن أبيهِ مَا أحَبّهُ

بحَقّ مَا في قُلّةِ المَيرُونِ
مِن نافِعِ الأدوَاءِ للمَجنُونِ[3]
بحَقّ مَايُؤثَرُ عَن شِمعُونٍ،
مِن بَرَكَاتِ الخُوصِ وَالزّيتُونِ

---

١ ـ مشمعلين: منتشرين، متفرقين.

٢ ـ نينوى: لم نعرف نبياً بهذا الاسم.

٣ ـ الميرون: الزيت المقدس.

بِحقِّ أعيادِ الصّليبِ الزُّهْرِ،
وعيدِ شمعون وَعيدِ الفطرِ
وَبالشّعانينِ العظيمِ القدرِ،
وَعيدِ مَرمَارِي الرّفيعِ الذّكرِ
وَعيدِ أشَعيا ، وَبالهَياكِلِ ،
وَالدُّخنِ اللاّتي بكَفّ الحَامِلِ[1]
يُشفَى بهَا من خبلٍ كلّ خَابلِ
وَمن دَخيلِ السُّقمِ في المَفَاصِلِ
بِحَقّ سَبعينَ مِنَ العِبَادِ،
قَامُوا بدينِ اللهِ في البلادِ[2]
وَأرشَدُوا النّاسَ إلى الرّشاد،
حتى اهتَدَى مَن لم يَكُن بِهادِ
بحقّ ثنتي عَشرَةٍ مِنَ الأُمَم،
سارُوا إلى الأقطارِ يتلونَ الحِكَم[3]
حتى إذا صُبحُ الدّجى جَلّى الظُّلَمْ،
صَارُوا إلى اللهِ وَفَازوا بِالنِّعَمْ
بحقّ مَا في مُحكَمِ الإنجيلِ ،
مِنْ مُحكَمِ التحريمِ وَالتّحليلِ
وَخَبَرٍ ذِي نَبَإٍ جَليلِ،
يَرْوِيهِ جيلٌ قَد مَضَى عَن جيلِ

١ ـ الدخن: الواحدة دخنة: ذريرة تدخن بها البيوت. الحامل: الحبلى.
٢ ـ إشارة إلى الاثنين والسبعين تلميذاً الذين ارسلهم السيد المسيح ليبشروا بتعاليمه.
٣ ـ يشير إلى رسل السيد المسيح الاثني عشر.

بِحَقِّ مُرقُسَ الشَّفيقِ النَّاصِحِ،
بِحَقِّ لُوقَا ذِي الفَعَالِ الصَّالِحِ
بِحَقِّ يُوحَنَّا الحَلِيمِ الرَّاجِحِ،
وَالشُّهَدَاءِ بالفَلا الصَّحَاصِحِ[1]
بِحَقِّ مَعمُوديَةِ الأَرْوَاحِ،
وَالمَذْبَحِ المَشهُورِ في النَّوَاحي
وَمَنْ بِهِ من لابِسِ الأَمسَاحِ،
وَعَابِدٍ بَاكٍ وَمِن نَوَّاحِ[2]
بِحَقِّ تَقريبِك في الآحَادِ،
وَشُربِكَ القَهوَةَ كالفِرْصَادِ
وَطُولِ تَبييضِكَ للأكبادِ،
بِمَا بِعَينَيكَ مِنَ السَّوَادِ
بِحَقِّ مَاقدسَ شَعيَا فِيهِ،
بِالحَمدِ للّهِ وَبِالتَّنزِيهِ
بِحَقِّ نَسطُورٍ وَ مَا يَروِيهِ،
عَن كُلِّ نَامُوسٍ لَهُ فَقِيهِ[3]
شَيخَانِ كَانَا مِن شُيُوخِ العِلمِ،
وَبَعضِ أركَانِ التُّقَى وَالحِلمِ
لَم يَنطِقَا قَطُّ بِغَيرِ فَهمِ،
مَوتُهُمَا كَانَ حَيَاةَ الخَصمِ

---

١ ـ الصحاصح، الواحد صحصحان: ما استوى من الأرض وكان أجرد.
٢ ـ الفرصاد: ثمر التوت الأحمر.
٣ ـ نسطور: بطريرك القسطنطينية وإليه تنسب البدعة النسطورية ويظهر أن عمراً كان من هذه البدعة.

بِحُرمَةِ الأسقُفِ وَالمُطرَانِ،
وَالجاثَلِيقِ العَالِمِ الرَّبّانِي

وَالقَسّ وَ الشمّاسِ وَالديرانِي،
وَالبَطرَكِ الأكبَرِ وَالرّهبَانِ

بحُرمَةِ المَحبُوسِ في أعلى الجَبَلْ،
وَمار قُولا حِينَ صَلّى وَ ابتَهَلْ

وَ بالكَنيسَاتِ القَديماتِ الأوَلْ،
وَبِالسّليمِ المُرتضى بمَا فَعَلْ[1]

بحُرمَةِ الأسقُوفيَا وَ البَيرَم ،
ومَا حَوَى بِمغفَرُ رَأسِ مَريَمِ[2]

بحُرمَةِ الصّومِ الكبيرِ الأعظَمِ،
وَحَقّ كلّ بَركَةٍ و مَحرَمِ

بحَقّ يَومِ الذّبحِ ذِي الإشرَاقِ،
وَلَيلَةِ الميلادِ و السّلاقِ[3]

وَالذّهَبِ المُذهِبِ للنّفَاقِ،
وَالفِصْحِ، يَا مُهَذّبَ الأخلاقِ

بِكُلّ قُدّاسٍ عَلى قُدّاسِ،
قَدّسَهُ القَسُّ مَعَ الشمّاسِ

وَقَرّبُوا يَومَ الخَمِيسِ النّاسِي،

---

١ ـ قوله: السليم، هكذا في الأصل، وفي رواية أخرى: السليح، وهي لفظة سريانية معناها الرسول، وهذه الرواية أصح.
٢ ـ الاسقوفيا: طاقية المبتدىء. البيرم، أو البيرمون: اليوم الذي يسبق يوم العيد، واللفظتان يونانيتان. المغفر: الزرد الذي يضعه المحارب على رأسه، ولا نعلم ماذا أراد بمغفر رأس مريم.
٣ ـ السلاق: عيد الصعود، واللفظة سريانية.

وَقَدّمُوا الكَاسَ لكُلّ حَاسِ[1]

ألا رَغِبتَ في رِضَا أديب
باعَدَهُ الحُبُّ عَنِ الحَبِيبِ
تَذابَ مِن شَوقٍ إلى المُذِيبِ،
أعلى مُناهُ أيسرُ التّقريبِ
فَانظُر أميري في صَلاحِ أمرِي،
مُحتَسِباً فيّ عَظِيمَ الأجرِ
مُكتَسِباً فيّ جَمِيلَ الشّكرِ،
في نَثرِ ألفاظٍ ، وَ نَظْمِ شِعرِ

---

١ ـ قوله: الناس، أراد الاناسي جمع انسان.

الباب الرابع (*)

عرس ومأتم

(*) ديك الجن وحبه للجارية النصرانية ورد وزواجه بها ثم شكه فيها وقتله لها، وندمه بعد ذلك ورثاؤه لها رثاء الزوج المخدوع المفجوع، هذا الرثاء الذي قل أن نجد له نظيراً في لوعته وصدقه في الأدب العربي، كل ذلك دعاني إلى إفراده بهذا الباب المستقل.

ديك الجن الحمصي وورد

إن علاقة ديك الجن الحمصي بورد النصرانية وزواجه بها ثم قتله لها، وندمه على قتلها بعد أن عرف بطلان مااتهمت به ظلماً وزوراً يمثل أطول مأساة في الحب بين المسلمين والنصارى، ولذلك اخترت أن أختتم بقصته هذا الكتاب .

أما ديك الجن فهو عبد السلام بن رغبان، وقد غلب عليه لقب " ديك الجن "حتى كاد يطمس اسمه الأصلي .

جاء في الأعلام ٤ :١٢٨

ديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ ه)(٧٧٨ - ٨٥٠ م)

(عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي، المعروف بديك الجن، شاعر مجيد، فيه مجون، من شعراء العصر العباسي، سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين . أصله من سلمية (قرب حماة) ومولده ووفاته بحمص (في سورية لم يفارق بلاد الشام ولم ينتجع بشعره).

ولما كان كتابنا يتناول الحب بين المسلمين والنصارى، فلن أقف عند عصره وشعره وفنه وإنما اقتصر على حبه لورد، الفتاة النصرانية، وزواجه بها . وشكه فيها ثم قتله لها، ثم تيقنه من براءتها، فندمه على القتل ورثائه لها رثاء قل نظيره في الشعر كله.

لقد ألف الأخ الأستاذ مظهر الحجي كتاباً أسماه "ديك الجن الحمصي" نشرته دار طلاس في دمشق عام ١٩٨٩ ، كما نشر ديوانه في وزارة الثقافة عام ١٩٨٧ ،وكانت دراسته لديك الجن دراسة ممتازة استطاع أن يعرض علينا هذا الشاعر الشقي عرضاً كاملاً، ولذلك رأيت ان أقتصر في هذا الكتاب على ما ورد عن علاقة ديك الجن بورد من ص - ١١٣ إلى ص - ١٢٤ ، فمن أراد زيادة في أخبار ديك الجن وشعره فليرجع إلى الكتاب والديوان السابقين .

قال الأستاذ مظهر الحجي :

ـ ورد:

إن معظم ماقاله ديك الجن في "ورد "يمكن أن يندرج تحت أبواب الغزل والرثاء . ولكنني آثرت أن أدرسه في بحث مستقل، نظراً لأهميته وخطورته في إبراز المعالم النفسية والسلوكية عند الشاعر، ولأنه يعبر عن أهم وأخطر تجربة حياتية عاشها، وتركت على صفحة نفسه وقلبه وتفكيره بصمات واضحة لم تستطع الأيام طمسها .إنها الفاجعة الأعظم والمحنة الأكبر في حياة الديك الحافلة بالفواجع والمحن .

إن شعر ديك الجن في ورد - إذا ما أعدنا ترتيبه حسب السياق التاريخي لحكايته مع ورد - يمثل قصة متكاملة متسلسلة الحلقات . و لقد كانت قصة فاجعة غريبة تفور بالألم ؛ بل لعلها أكثر القصص فجيعة وإيلاماً في حياة شعرائنا العرب، من سالفين ومعاصرين .

وكان يمكن أن ندرس ما قاله الديك في ورد دراسة موحدة متكاملة، ولكنني آثرت أن أقسمها إلى مراحل أربع، توخياً للتبسيط والوضوح والدقة:

أ - المرحلة الأولى : لقاؤه بورد وزواجه بها.

ب - المرحلة الثانية : الشك.

ج – المرحلة الثالثة : القتل .

د – المرحلة الرابعة : الندم والرثاء الباكي .

وينبغي ألا يغيب عن بالنا الامتداد الزمني لهذه المراحل الأربع. ذلك لأنها امتدت على ساحة زمنية طويلة تعادل السنوات التي عاشها مع ورد، والتي لانستطيع تحديدها على وجه الدقة . كما ينبغي ألا يغيب عن البال تشابك هذه المراحل وتداخلها لأنها تصور حياة إنسانية بالغة التعقيد .

أ – المرحلة الأولى : اللقاء

إن ماقاله ديك الجن في هذه المرحلة ، مرحلة اللقاء يصور – على ندرته – السعادة الغامرة التي عاشها في أحضان معشوقته، كما يصور فرحه الكبير لها، هذا الفرح وهذا الحب الذي بهره وملك عليه أقطار نفسه، دفعه – على غير عادة الأزواج العرب المسلمين – إلى تصور ورد تصويراً مادياً خالصاً، مبرزاً مفاتنها الجسدية والأفعال التي لا تصدر عن المرأة الزوجة إلا في مخدع الزوجية وبعيداً عن أعين الرقباء . وحتى لو كانت هذه الأبيات تمثل ديك الجن العاشق ، قبل الزواج ، فإنها غريبة أو مستهجنة في صدورها عن محبٍّ عاشق حقيقي .ولكنها – فيما أرى – ليست بغريبة ولا بمستهجنة عند الديك . فورد هي زينة الدنيا ، بل الفتنة بعينها، بجمالها الخارق الأخاذ ، إنها شمس ساطعة وقمر منير، بل هي أجمل زهرة أبدعها الخالق في الطبيعة، ولن تستطيع عين راءٍ أن ترى جمال اجتماع البياض مع السواد في منظر وجهها الأبيض المنير وشعرها الأسود الفاحم . إنها وردة حقيقية خمرية اللون بما تتفجر به وجنتاها من حمرة،بل إن أي إنسان يجهل أن اسمها" ورد " يحزر هذا الاسم إذا ماتذوق ريقَها العذب الذي يفوق الخمرة في طيب مذاقه، وإن قامتها نموذج الجمال بردفها الثقيل وخصرها النحيل . ومأأجملها من نديمة تقدم لجليسها شرابين مسكرين، إنهاتقدم خمرة الكأس

كما تجود عليه بخمرة من ريقها العذب يقول [١] : في وصف ورد.

انظر إلى شمسِ القصورِ وبَدرِها
وإلى خُزَاماها وبهجة زهرها
لم تَبْلُ عينُكَ أبيضاً في أسودٍ
جَمَعَ الجَمالَ كوجهها في شعرها
وردية الوجناتِ يَختبر اسمها
مِن ريقها من لايحيطُ بخُبرِها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها
عجباً ولكنّي بكيتُ لخصرها
تسقيكَ كأسَ مدامة من كفّها
ورديةً، ومُدامةً من ثَغرها

ب – المرحلة الثانية :الشك

إن شعر هذه المرحلة يمثل الشك الذي بدأ يراوده وهو بعيد عن حمص، مقيم في سلمية في كنف الأمير جعفر الهاشمي . ولقد تعاظم هذا الشك بسبب الأخبار التي يسرّبها ابن عمه أبو الطيب، فيبادر الديك بالاستئذان من مضيفه وصديقه جعفر شاكياً الدهر الذي طالما تقصّده بسهامه، مُبدياً خوفه وألمه من طول الفراق والابتعاد عن بلده ومحبوبته، وخوفه من أن تصدق الأنباء القادمة من حمص وتتأكد خيانة ورد [٢] :

إن ريبَ الزمان طال انتكاثُه
كم رمتني بحادثٍ أحداثُه

---

١ الديوان: ص ١٦٨ .
٢ الديوان : ص ٨٥ ، وانظر الكاتب ص ٤٢ .

ج – المرحلة الثالثة : القتل

وشعر هذه المرحلة الثالثة يمثل مرحلة القتل، فقد وقعت الواقعة، وصدقت الأخبار، وبالهول وقع أنباء الخيانة على مسامع الديك . لقد انتضى سيفه لأنه لم يجد في غيره دواء يسكت صراخ الجرح الناغل في قلبه، ولم يغمده إلا مخضباً بدماء المعشوقة الخائنة.

إنه يخاطب ورداً معنفاً نفسه على هذا الحب الذي كان يتمنى ألا يتذوق جناه، نادماً على هذا العشق المدنس بالخيانة . وأكثر ماآذاه لوم الناس لحلمه وصبره عليها ،ولماذا يلومه الناس؟ فهل هو الإنسان الوحيد الذي أحب ثم خدع فقتل من يحب ؟ ولكن لابأس، فقد حدث ما حدث ولسوف يتناسى ورداً بقية عمره، ولكنه سيبكيها، لا لأنه قتلها، بل لأنها خانت حبه ولم تكن له أهلاً[1] :

ليتني لم أكن لعطفك نلتُ
وإلى ذلك الوصال وصلتُ

قال ذو الجهل: قد حلمت ولاأعـ
ـلم أني حلمتُ حتى جهلت

لائمٌ لي بجهله ولماذا
أنا وحدي أحببتُ ثم قَتلتُ؟

سوف آسى طول الحياةِ وأبكيـ
ـكِ على مافعلتِ لاما فعلتُ

ومما زاد من قوة الصدمة وشدة الفاجعة في تلك اللحظة، أنه أخلص لها الود لأنها كانت حبه الحقيقي ؛ وهو المتهتك الذي لم يعرف غير الغانيات، وكأنه كان يقنع نفسه بوجود امرأة حقيقية وحب حقيقي من خلال تجربته

---

١ ــ الديوان: ص ٨٧ .

مع ورد، فجاء خبر خيانتها ليهدم هذه المقولةالتي أجهد نفسه بالاقتناع بها . كما أن معارضة البعض لزواجه من هذه الفتاة النصرانية ،ومخالفته لهم، ثم فشل هذا الزواج بسبب خيانتها - حسب ظنه في تلك اللحظة - أدى إلى ازدياد غضبه وحقده على النساء .ولقد نفى من قلبه وعقله فكرة وجود حب حقيقي، وعاد إلى مقولته السابقة التي تقوم على اللذة المادية فقط. وعلى الرجل أن ينال من المرأة بغيته ويطفيء نار شهوته ثم يمضي دون أن يلتفت وراءه.

إنها الخيانة . وهل هنالك أمَرّ من خيانة الحبيبة،مع الإخلاص لها، وهاهو ذا ديك الجن يلتفت إلى قلبه محذراً من الوقوع في حبائل النساء، لأنهن جميعاً كاذبات كالبرق الخلَّب الذي يبشر بمطر لايجيء، وما دواء الخيانة إلا الموت (١):

خُنتِ سِرّي مُواتيه
والمنايا معاديه
أيها القلبُ لا تعد
لهوى البيضِ ثانيه
ليس برقٌ يكون أخـ
ـلَبَ مِن برقِ غانيه
خنتِ سري ولم أخـ
ـنْكِ فموتي علانيه

د - المرحلة الرابعة : الندم

ولقد بلغ عدد ماقاله في هذه المرحلة - مرحلة الندم والرثاء الباكي

---

١ - الديوان: ص ٨٩ .

ثماني قصائد في ديوانه المطبوع، بالإضافة إلى بعض الأبيات المفردة وهذا أغزر شعر أثبته الديوان لموضوع واحد، وهو يدل على مدى تأثره بالحادثة كما يدل على أنها قد شغلت حيزاً كبيراً من شعوره وتفكيره

إن ماقاله في المراحل السابقة يمثل بدايات الفاجعة . أما الفاجعة الحقيقية فقد بدأت لحظة صحا الشاعر من سورة غضبه، ووعى أنه قد قتل محبوبته ورداً ظالماً متجنياً، ولم يترك لها فرصة لإثبات براءتها، كما أنه لم يترك لنفسه فرصة للمراجعة والتثبّت . وقد يكون من الطبيعي أن يقتل العاشق معشوقة خائنة، ولكن من غير الطبيعي أن يتسرع العاشق بقتل معشوقة بريئة طاهرة، ومن هنا تنبع مأساة ديك الجن الحقيقية . لقد بقيت دماء ورد الطاهرةالعفيفة تصبغ يديه وسيفه بالحمرة الصارخة المستغيثة دهراً طويلاً ؛ بل لقد رافقته بقية عمره، ولم يستطع أبداً أن يزيل هذه البقع الحمراء المستجيرة عن يديه وعينيه ومن أعماق روحه النادمة .

لقد بدأت مرحلة الرثاء والبكاء ... وإن ماقاله ديك الجن في هذه المرحلة يمثل أجمل شعره وأروعه، بل يعتبر من عيون شعر الرثاء؛ بحرارته وتدفقه وتماسكه الفني، وبراعته في تصوير الحالة النفسيةالتي يعيشها الشاعر ، وتتبع روحه في أدق خلجاتها وفي أقسى لحظات معاناتها الحقيقيّة .

وها هو ذا ديك الجن في البداية يعلن عن تفجعه وندمه لقتل ورد الحبيبة التي طالما ارتوى من شفتيها حباً وهياماً، ثم يحاول أن يبدي سبباً لقتلها يقنع به نفسه قبل الجميع، وبماذا يهمه رأي الناس؟ إن ما يهمه بالدرجة الأهم روحه الهائمة النادبة المتفجعة .

وها هو يقسم بأعز شيء عنده؛ يقسم بنعلي ورد أنه لم يقتلها بغضاً أو كرهاً، وإنما قتلها غيرة من أن تقع عليها عين غير عينه . لقد قتلها لأنه يحبها ! .ومن هذا التناقض تنبع الكارثة . لقد وصل به العشق إلى درجة القتل،

ولعمري إنه عشق غريب يقود إلى الجنون، أو هو الجنون عينه. يقول[١]:

يا طلعةً طَلَعَ الحِمامُ عليها
وجنى لها ثَمَرَ الرّدى بيديها

إنه يبدي لنا أو لنفسه سبباً عجيباً لقتلها، الغيرة. وهذه حالة من حالات التمزق النفسي الذي يعيشه .

ثم ينتقل إلى تصوير ضرب آخر من ضروب التمزق والتشتت النفسي، في محاولة لتسويغ فعلته الغريبة والشنيعة . إنه الخوف، الخوف من غدرات الزمان وهجران ورد له، وهذا المسوغ الجديد يتصل بالغيرة بسبب قوي . إنه يخاف من الغدر، يخاف من غدر الدهر الذي يقف له بالمرصاد، ويخاف من ورد المعشوقة التي قد تُسَوّل لها نفسها هجرانه ونبذه . ورد، القمر الذي أضاء حياته والذي كان سبب بلائه وشقائه، و لهذا بادر إلى قتل هذا الضياء على الرغم من حبه المتغلغل في أحشائه وشغافه، ثم أقام فوق نبع النور فيه - فوق رأسها - يسفح عليه العبرات السخية الحارة، وما أقسى الآلام الفظيعة التي يعاني منها القاتل ، والتي لو درى بها القتيل لبكى له في قبره، توجعاًومشاركة، إن قلبه الجريح يكاد يحطم بوابة صدره بوجيبه واضطرابه [٢]:

أشفقتُ أن يردَ الزمانُ بغدرِهِ
أو أبتلى بعدَ الوصال بهجرِهِ
قَمرٌ أنا استخرجتهُ من دَجنه
لبليتي وجلوتُهُ من خِدرِهِ
فقتلتُهُ وله عليّ كرامةٌ
مِلءَالحشا وله الفؤادُ بأسرِهِ

١ - الديوان: ص ٩٠ وانظر هذا الكتاب ص ٤٥ .
٢ - الديوان: ص ٩٢ .

عهدي به مَيتاً كأحسن نائمٍ
والحزنُ يَسفَحُ عبرتي في نحرِهِ
لو كان يدري الميتُ ماذا بعدهُ
بالحيِّ حلَّ بكى له في قبرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيظُ منها نفسُهُ
وتكادُ تُخرِجُ قلبَهُ من صدرِهِ

إن هذا النص يعبر أيضاً عن حالة ثالثة من حالات التمزق النفسي . إنه يعبر عن الندم المتألم المقترن بتعذيب النفس .

وقد يتخذ تعذيب النفس عند الجاني أشكالاً متعددة . فقد يعاود المرور بمسرح الجريمة أو يحوم حوله، وقد يعاود تأمل سلاح الجريمه أو رسم القتيل . أما عند ديك الجن فإن تعذيب النفس بدا في صورة تَذَكُّره للقتيلة لحظة القتل؛ العنق الذبيح ؛ فم فاغر يفور بالدم الممتزج بدموع القاتل ، والعيون نظرات زائغة تَجمَّع فيها رعب الأرض كله ، والفم البرعم المكتنز الجميل صرخة مبحوحة مكتومة شكّلها الذعر المفاجيء وشكّلتها الاستغاثة والدهشة المبهوتة .

وحالة رابعة من تصويره لحالات التمزق النفسي تَبدَّت في البحث عمن كان سبباً في وقوع الواقعة . ولقد بحث الديك طويلاً فلم يجد غير الدهر سببا . هذا الدهر الخؤون الذي طالما شكا منه وخافه وحاول الفرار منه عبثاً . والدهر خصم قوي مجهول لم يستطع الشاعر النيل منه ولو مرة واحدة . ولم يبق أمامه إلا الدعاء على هذا العدو، ثم الانهيار والاستسلام للبكاء.

إنه يرى في الدهر سبباً لمصيبته ، ولاخيار للإنسان فيما يوقعه به هذا الدهر من مصائب . فما أسعد الناس الذين يموتون قبل أن يتذوقوا لذة العشق، أما الديك فإنه لم يبق له إلا أن يمتح من بئر دموعه حتى تجف ،

وليفعل الدهر به ما بدا له، وليبالغ في قسوته ما شاء، ولكنه سيموت يوماً؛ سيموت الدهر نفسه كما ماتت ورد لأنه لابقاء إلا لله وحده [1] :

ما لامرىءٍ بيد الدهر الخؤون يدُ
ولا على جَلَدِ الدنيا له جَلَدُ
طوبى لأحباب أقوام أصابهمُ
من قبلِ أن يعشقوا موتٌ، فقد سعدوا
وحقِّهم، إنه حقٌّ أضِنُّ به
لأنفِدَنَّ لهم دمعي كما نَفِدُوا
يا دهرُ إنك مَسقيّ بكأسهمُ
ووارِدٌ ذلك الحوض الذي وردوا
الخلقُ ماضون والأيام تتبعهم
نفنَى ويبقى الإلهُ الواحد الصَّمَدُ

إنها مرحلة الانهيار الباكي الذي لم يبق له من حيلة لدفع ماحدث.

وما يتصل بانهياره الباكي ، مناجاته لورد، الحبيبة المقتولة، وهي حالة خامسة من حالات تصوير شعره لتمزقه النفسي.

إنه يسائلها عن حالها بعد الموت، مصوراً حاله التعيسة التي وصل إليها وما يعانيه من لوم الناس وتقريعهم . و ها هو ينادي هذه الميتة في القبر، مسكنها الجديد، طالباً أن تبين حالها بعد الموت وأين تقيم، وهي التي كانت تقيم في أحشائه وكبده . ثم ينتقل في تصويره إلى حالته المحزنة المؤلمة، فهو دائم البكاء لايعرف إلى النوم سبيلاً ، ولو رأته ورد، ورأت دموعه المسفوحة على خديه، وسمعت أنفاسه اللاهثة المتقطعة ؛ لأدركت أنه سيتبعها إلى القبر عما قريب . وإن أقسى ما يعاني منه، لوم الناس على حزنه وبكائه،

---

١ ـ الديوان: ص ٩٦ .

ومبالغتهم في تعذيبه حين يقولون : كيف تقتلها ثم تبكيها ؛ إنك والله كالصياد الذي يبكي الطرائد ، وسكينه تحزّ رقابها . إنهم لا يدركون مدى آلامه فلم لايتركونه وشأنه [1]:

أساكنَ حفرةٍ وقرار لَحْدَ
مُفارقَ خلةٍ من بعد عهدِ
أجبني إن قدرتَ على سؤاليَ
بحقِ الودِّ كيف ظَللتَ بعدي
وأين حَلَلتَ بعدَ حلولِ قلبي
وأحشائي وأضلاعي وكبدي
أما واللهِ لو عاينتَ وجدي
إذا استعبرتُ في الظَّلماءِ وحدي
وجدَّ تنفُّسي وعلا زفيري
وفاضت عَبرتي في صحنِ خَدّي
إذن لعلمت أني عن قريب
سَتُحفَرُ حُفرتي ويُشَقُّ لحدي
ويَعذلني السَّفيهُ على بكائي
كأني مُبتلى بالحزن وحدي
يقول : قتلتها سَفَهاً وجهلاً
وتبكيها بكاءً ليس يُجدي
كَصَيَّادِ الطيورِ له انتحاب
عليها وهو يذبحها بَحَدِّ

إن الديك يعيش الآن محاولة قتل النفس بالبكاء تكفيراً عن ذنبه الكبير.

---

١ ـ الديوان: ص ٩٨ .

ثم يدخل الشاعر في حالة الهذيان ، وهي حالة سادسة، يصور فيها مرحلة وصل فيها إلى مشارف الجنون.

إنه ينتظرها، أو ينتظر طيفها صباح مساء [١] ، ثم ها هي ذي ورد تنتصب أمامه، بقامتها الفارعة ووجهها المضيء فتأخذه البغتة، ثم ينكب عليها لثماً وتقبيلاً، ثم يثوب إلى نفسه فيسألها :كيف استطعت العودة مخترقة حجارة القبر الصمّاء ؟ وتجيبه ورد : إن عظامي ما تزال هناك مُمَدَّدة في قبرها، أما روحي فإنها هي التي تعودك الآن.

إنها أحلام تخفف عن الشاعر بعض لوعته [٢] :

جاءت تزور فراشي بعدما قُبِرَت
فَظِلتُ ألثُمُ نحراً زانه الجِيدُ
وقلتُ: قُرةَعيني قد بعثت لنا
فكيف ذا وطريقُ القبرِ مسدودُ؟
قالت: هناك عظامي فيه مُودعةٌ
تعيثُ فيها بناتُ الأرضِ والدودُ
وهذه الروح قد جاءتكَ زائرةً
هذي زيارةُ مَن في القبرِ مَلحُودُ

إنها مرحلة الهذيان .

وهو في هذه المرحلة من اضطرابه، وتشتته، يحاول الاعتذار لمحبوبته عن قتلها، فيرسل لها رسالة إلى القبر، يطري فيها جمالها، ثم يبين الحوافز التي دفعته إلى قتلها.

---

١ ـ الديوان: ص ٩٨ .
٢ ـ الديوان: ص ١٤٢

فورد هي أجمل الناس، بوجهها المضيء الذي يفوق الشمس والقمر . ولقد كانت أجمل الأحياء وهي الآن أجمل الموتى، و هو يفديها بأحب قرابته إليه، حية وميتة؛ ولكنها خانته في غيبته، ولم تحفظ عهده فسارع إلى حزّعنقها والتشفي بموتها جزاء غدرها [1]:

قل لِمن كان وجهُهُ كضياء الشّمـ
ـسِ في حسنهِ وَ بَدرٍ منيرِ
كنتَ زَينَ الأحياءِ إذ كنتَ فيهم
ثم قد صِرت زَين أهلِ القبورِ
بأبي أنتَ في الحياة وفي الموتِ
وتحتَ الثَّرى ويومَ النّشورِ
خنتني في المغيبِ والخونُ نُكرٌ
وذميمٌ في سالفاتِ الدُّهورِ
فشفاني سيفي وأسرعَ في حَـ
ـزِّ التَّراقي قَطعاً وحَزِّ النُّحورِ

إن هذه المقطوعة – في رأيي – تصوير صادق وملخصُ للصراع النفسي الحاد الذي يعيشه الديك . فحبها مايزال طرياً متمكناً من نفسه ، و هو مايزال يصارع في نفسه نوازع الشك واليقين، والغدر والبراءة ؛ ثم يزين لنفسه صحة فعلته، ويحسن لها قتل ورد الحبيبة . وكأني به يحاول أن يؤكد غدرها أمام نفسه ليرتاح من عذاب الضمير الذي يؤرقه. إنه يحاول عبثاً ، أن يوجد مَسوِّغاً لقتلها... ولكن أنى له هذا المسوِّغ؟

لقد بقيت ورد ، بجرحها الفاغر المتفجر بالدماء والحب، لعنة تطارد الديك العاشق حتى لحظاته الأخيرة.

---

١ ـ الديوان: ص ٩٩ .

سمات شعره في ورد

إن أبرز ما يطالعنا من سمات في شعر ديك الجن الذي يصور مأساته مع ورد :

أولاً : ارتباطه بمكونات ديك الجن النفسية

يرتبط هذا اللون الشعري ارتباطاً وتيقاً بمكونات ديك الجن النفسية وبلحظات التوتر العاطفي والإنفجار الشعوري التي عاشها خلال التجربة كلها . وقد تدرجت عواطفه ونمت بنمو التجربة وتطورها،كما أنها تلونت بألوان التجربة ذاتها من خلال تطورها وامتدادهاعلى الساحة الزمنية التي شغلتها . فقد بدأت بالفرح الغامر والتفاؤل والنشوة الخالصة والتعبير المترف المفرط بالشعور بالسعادة ، وهذا يبدو واضحاً في غزله.

ثم أثيرت نوازع الشك في نفسه وشُبّت ناره التي بدأت يسيرة، ثم استحالت شعلة متأججة تفتك بقلبه وتتأكله . ومع الشك نما عذابه الكبير الذي زاد فيه، بُعده عن حمص خلال إقامته في سلمية في كنف صديقه جعفر، وهذا البعد الذي شكا منه، لايعطيه فرصة التّثبت من الشائعات ، نظراً لبعده عن مسرحها ، فهو يسمعها من طرف واحد ، هو الطرف المتهم، وهذا يبدو واضحاً في استئذانه من صديقه جعفر، ليؤوب إلى حمص . ثم يؤكد ابن عمه أبو الطيب خيانة ورد، كما تقول كتب الأدب، بعد أن آب إلى حمص، فيصدق مقولة ابن عمه، ويثور في نفسه غضب جارف مشتبك بمجموعة من العواطف، نتبين منها الحزن المتداخل بالألم وبالانتقام والشعور بالخيانة ونكران الجميل .

ثم يتبين الديك كذب ابن عمه وبراءة ورد مما نسب من فعل شنيع إليها،فتبدأ مرحلة الندم النادب المتفجع، وتسحقه الفجيعة سحقاً . وإن ماقاله في تصوير ندمه - وهو أغزر شعر قاله في ورد - يعبر بوضوح رائع

عن معاناته الكبيرة وتمزقاته الحادة وانهياره الكامل أمام الحدث .إنه يصور مأساته الفريدة التي ربما لا نجد لها شبيهاً في تاريخنا الأدبي كله.

ثانياً : معاقبة النفس

فقد أدرك الديك الغلط الشنيع الذي ارتكبه، ووقر في نفسه أنه لابد من العقوبة . ولكن من يعاقب ؟ أنه يعاقب الجاني ؛ يعاقب نفسه. وكيف يعاقب نفسه ؟! إنه يعاقب نفسه بتعذيبها جزاء حمقها وتسرعها . وقد اتخذ تعذيب النفس عند الديك أشكالاً متعددة متنوعة . فهو يعذب نفسه بتذكر الحادثة ووصف تفصيلاتها الدقيقة؛ مع الإلحاح على منظر الدم المتفجر من أوردة ورد . كما يذكّر نفسه بمنظر القتيلة وقد نزفت دماؤها حتى هدأت حركتها وقرّت على الأرض كالنائمة . ثم يلاحق نفسه بتذكر القتيلة في قبرها ، بإبداء خوفه عليها وهي ترقد تحت الحجارة الصماء . كما يطارد نفسه بجمال ورد الذي حُرمت هذه النفس منه . إنه يؤكد على إبراز جمالها المادي الجسدي في رثائها على الرغم من أن الموقف لايناسبه مثل هذا القول، ولكنه مصر على الإمعان في تعذيب نفسه. وهو من خلال رثائه كله، يصر على استخدام الألفاظ التي تبالغ في التعبير عن معنى القتل، كما تبالغ في إبرازه.

ثالثاً :خلو هذا اللون الشعري من الخمرة

وقد يبدو هذا مستغرباً من الديك، لأن الخمرة أحد الأركان الهامة التي يقوم عليها شعره، ولهذا فإنها تكاد تقتحم ألوانه كلّها، إلا ما قاله في ورد ، على الرغم من أن كتب الأدب تؤكد انكبابه على الشراب في محاولة منه للنسيان.

ولئن كان الديك في الماضي يسبح في بحار الخمرة لهواً ، فإنه الآن

يُغرق نفسه فيها عقوبة .ولكن .. أيُّ الأبواب يقود إلى النسيان ليسلك فيه ؟ وأنى له الولوج وكلها موصدة بأقفال العذاب الأبدي !؟

رابعاً : أسباب القتل

وقد أبدى لنا الديك أسباباً متعددة لقتل ورد . فقد شكا من الدهر معلناً خوفه من أن يفاجأه بما يكره . كما أعلن عن خوفه من هجران ورد له بعد هيامه بها . ثم أعلن عن خوفه من خيانة ورد لحبه ، ثم أكد هذه الخيانة – التي لم تثبت – في إحدى لحظات تمزقه وصراعاته، ثم أبدى لنا سبباً عجيباً هو الغيرة من أن تقع عليها عين غير عينه.

إن هذه الأسباب مجتمعة لاتصلح لتكون سبباً دافعاً للقتل ... إذا تذكرنا أن المقتول ليس إنسانا عادياً أو غريباً ، بل هو الحبيب المعشوق الذي يحتل من نفس قاتله أغلى المواقع وأعزها . وهذه الأسباب – على تفاوتها في ضعف الحجة وعدم امتلاكها للقليل من الإقناع العاقل، وإدهاشها في الغرابة – لاتصلح شاهداً للديك بل تقوم شاهداً عليه . بل إنها تدل على إنسان مصاب بما يمكن أن نسميه " العُصاب " أو هو إنسان واقف على الخط الدقيق الفاصل بين العقل والجنون، بل هو إلى الجنون أقرب ، عندما يسقط فريسة لنوبات الغضب العاتية التي تنتابه، وقد تنتابه لأتفه الأسباب ؛ وقد قتل ورداً في إحدى هذه النوبات الغاضبة المجنونة .

أما إذا صدقنا قوله: إنه قتلها بسبب الغيرة، أو خوفاً من الدهر الذي قد يقلبها عليه فتصبح لغيره، فإننا نؤكد عند ذلك أنه مجنون فعلاً ، أو أن هناك اختلالاً شديداً في توازنه النفسي والعقلي . إذ كيف يعاقب الإنسان زوجته ومعشوقته على شبهة، ليس هناك ما يوحي بأنها تحدث، بل يتوهم بأنها قد تحدث !؟ وهل يكون القتل عقوبة على هذا التوهم !؟

وإنصافاً مني للديك الحزين الذي لاأود أن أضاعف عذابات روحه

أقول: "من المرجح عندي أنه كان يدرك تفاهة ما بيديه من أسباب ، و لكنه كان يعزي نفسه ويخفف عنها بعض ما تعاني منه، ويطامن من غُلُوِّ نيران الوجيعة في صدره ." (انتهى)

* * *

هذا هو ديك الجن وهذه هي ورد و قد مثلا في حياتهما الأولى أجمل حب، ومثل ديك الجن بقتلها أقسى جريمة، ثم حاول التكفير عن جريمته بدمعه وشعره، وهيهات أن يمحو الدمع آثار الدم المسفوك.

وعلى احترامنا وإعجابنا بكل ماكتب ونظم الكتاب والشعراء العرب في محنة ديك الجن ، فأنا أعتقد أن لو أتيح لها قلم (شكسبير) لجعل من هذه المحنة مسرحية عالمية تنسي الناس مسرحية "عطيل" بطل الغيرة في البندقية.

مصادر ديك الجن

أ - في كتب التراث :

١ - الأغاني ١٤ :٥١

٢ - تاريخ ابن عساكر :١٠ :١٦٠

٣ - وفيات الأعيان ٣: ١٨٦

٤ - الكشكول ٩٨ - ٩٩

٥ - تزيين الأسواق ١: ٢٩١ - ٢٩٣

٦ - العمدة ٢:١٤٩

٧ - الزهرة ١: ٨٢ - ٨٤

ب - الأعمال الأدبية المعاصرة عن ديك الجن

١ - ديك الجن الحمصي : نسيب عريضة الشاعر قصة نثرية

٢ - عرس ومأتم :البدوي الملثم: قصة نثرية

٣ - ديك الجن الحمصي : طاهر الجبلاوي : مسرحية شعرية

٤ - كأس : عمر أبو ريشه قصيدة

٥ - الحب المفترس :رئيف الخوري (قصة)

٦ - ديك الجن الحمصي عبد المعين الملوحي في كتاب "الأدب في خدمة المجتمع"

مسك الختام

وخير ما نختتم به كتابنا هذا رأي شيخنا أبي العلاء المعري ، هذا الأنسان الرائع الذي ترفع عن الأنانية ترفعا عجيباً حين قال :

ولـو أنـي حـبـيـت الخلـد فـردا
لما أحـبـبـت بـالخلـد انـفـرادا
فـلا هـطـلـت عـلـيَّ ولابـأرضـي
سـحـائـب لـيـس تـنـتـظـم الـبـلادا

والذي أنكر العروق وسوى بين كل الشعوب والأجناس حين قال:

لا يفخرنَّ الها شِميُّ على امرىءٍ من آل بربرْ
فالحق يشهد ما عَليٌّ[1] عنده إلا كقنبر[2]

والذي سوى بين المسيحية والإسلام وكان المسيح عنده مثل محمد

قال أبو العلاء (اللزوميات ١ / ٢٣٥) يخاطب المسيحين:

لا تـبـدؤونـي بـالـعـداوة مـنـكـمُ
فـمـسـيـحـكـم عـنـدي نـظـيرمـحـمـد

---

١ ـ علي: هو علي بن أبي طالب أمير المؤمنين.
٢ ـ قنبر: هو خادم علي البربري

أيغيث ضوء الصبح ناظرَ مدلج
أم نحن أجمع في ظلام سرمدِ؟

وإذا كان المعري لايعادي أحداً ، وإذا كان يدعو إلى نبذ العداوة بين المسيحين والمسلمين في البيت الأول ويعتبر المسيح نظير محمد ، فهو لايترك شكوكه في كل حال. وتبدو هذه الشكوك في البيت الثاني وهو يشير فيه إشارة ذات دلالة فليس يدري أينير الصبح طريق السالكين في الظلمات فيتبعون طريقهم إلى الحق ويسيرون في طريق المحبة والإخاء أم أنهم جميعاً سيظلون يتخبطون في الليل الأبدي البهيم ؟

ولعله في استفهامه هذا يحث الناس جميعاً ومنهم أصحاب الأديان على التبصر والروية قبل العداوة والغضب ، فقد يدفعهم التسرع إلى الضلال والبعد عن الحقيقة، وبعد عشرة قرون تقريباً جاء الكاتب الألماني (ليسنغ) ليقول (قصة الحضارة ٤١ /١٧٣) : ليست الحقيقة التي يملكها الرجل – أو يعتقد أنه يملكها – هي التي تجعل له قيمة، بل الجهد المخلص الذي بذله للوصول إليها – لأنه ليس بامتلاك الحقيقةبل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التي فيها وحده كماله المطرد النمو . فالتملك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبراً . ولو أن الله احتوى في يمناه الحقيقة كلها ولم تحتو يسراه إلاالحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأنني سأخطيء دائماً و أبداً ، ثم قال لي: "أختر لأحنيت رأسي في اتضاع أمام يسراه وقلت: أبتاه ، أعطني هذا .فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك".

وفي مسرحية (ناتان الحكيم) نجد صلاح الدين الأيوبي يسأل ناتان الحكيم : أي الأديان الثلاثة أفضل ؟ و يجيب ناتان بقصة تقول: إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلاً على الوارث الشرعي لضيعة غنية، وفي احد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوي حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ويعطي كل ابن خاتماً سراً ، وبعد الموت

يتنازع الأولاد على أي الخواتم هو الأصيل والحقيقي . فأما الأب المحب فهو الله . واما الخواتم الثلاثة فهي اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد في أمر هذه الأديان وكل خاتم – أي :كل دين – حقيقي بقدر ما يجعل لابسه فاضلاً... ولذلك فقد كان ناتان يربي الطفلة (ريكا) ثم لا يلقنها إلا التعاليم الدينية التي يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون ...
(قصة الحضارة ٤١ / ١٧٧ – ١٧٨)

ويقول (ليسنغ في موضع آخر : "كل دين فيه نواة غالية من الحقيقة"
(المصدر نفسه ٤١/ ١٧٩)

وهكذا نجد أبا العلاء يدعو إلى الإخاء بين الأديان ، فنحن جميعاً على أحسن تقدير نتخبط في الظلمات ولسنا نرى نور الصباح وضياء الحق.

خاتمة المطاف :

١ – أردت في هذه النزهة في رياض العاشقين والعاشقات إلى أن أبيز أن الحب لا يعترف بحدود ولا بسدود ، وأنه إنساني بكل معاني الإنسانية و يتجاوز العروق والألوان والطبقات والأديان ، وقديما قال العرب: "الهوى إله معبود"

٢ – وأردت ثانياً أن أشير إلى أن العلاقات الأولى بين النصارى والمسلمين كانت علاقات طيبة في حماية النصارى للمسلمين في أول عهد الاسلام ، في الهجرة الأولى ثم الهجرة الثانية إلى الحبشة ، ثم في زواج النبي على يد نجاشي الحبشة ، وفي وصايا أبي بكر لقواده وفي المعاهدة بين عمر وأهل بيت المقدس ، ثم تحولت هذه العلاقة العامة إلى علاقات شخصية بين المسلمين والمسيحين وكانت علاقات حب ومودة ، وقد قدمت أمثلة رائعة لهذا الحب ، تعنف أحياناً فتؤدي إلى الموت والشقاء والجنون، وتلين احيانا فتؤدي الى التفاهم والزواج ، وتكتفي أحياناً بالمودة والصداقة

٣ – وأردت ثالثاً أن أذكر العرب مسلمين ومسيحين بواجبهم في إنماء هذه العاطفة بينهم حرصاً على وطنهم ومستقبلهم ، فقد شهدنا – ويالللأسف – في الفترة الأخيرة أحداثاً دموية لم يراعوا فيها حق قوميتهم وعروبتهم عليهم، ولا واجب النسب الواحد، والجوار المشترك و إلي

لأعجب كيف تبدلت هذه العلاقات في عصر الانحطاط ، وأغلب الظن أنا ما نزال نعيش – و يالالأسف – في عصر الانحطاط . إلا من رحم ربك وهم قليل بل أقل من القليل .

لست أدعي بعد هذا البحث أني أحطت إحاطة تامة بالموضوع ، ولأني جمعت كل ماكان بين المسلمين والنصارى من حوادث الحب والصداقة ولكني أدعي أني جمعت منها ما استطعت ، وعسى أن أجد حوادث أخرى أضيفها إلى طبعة قادمةُ ومنها:

١ ـ زواج الشاعر الفرزدق بحدراء النصرانية

٢ ـ قصيدة ابن وكيع في حب نصرانية

٣ ـ قصائد ابن حداد الأندلسي في نويرة النصرانية

فهرس كتاب

الحب بين المسلمين والنصارى

هذا الكتاب

اطلع الكثيرون من خلال كتب التاريخ والسير على أخبار المحبين في التاريخ العربي، وربما جلب انتباه البعض أخبار حالات حب بين المسلمين والنصارى. أما الباحث والاستاذ الجليل عبد المعين الملوحي فقد قام بجمع هذه الاخبار وتصنيفها وإحالتها الى مراجعها، ذاكراً ما كان منها مأساوياً والطريف كذلك، وأضاف لجهده السابق اقتباسات مما كُتب وقيل عن الحب وحالاته وأصنافه، من خلال تتبعه لمراجع عربية وتاريخية وعالمية معاصرة.

هذا الكتاب عمل متميز لباحث متميز

الناشر

تصميم الغلاف : طالب الداوود